ثاني اثنين

ثاني اثنين

- **ثاني اثنين**
- **أدهم شرقاوي**
- **دار كلمات للنشر والتوزيع**

دولة الكويت/ محافظة العاصمة

ردمك: 9789921730418

تليفون: 0096599119934

تويتر: @Dar_Kalemat

إنستجرام: Dar_Kalemat

Dar_kalemat@hotmail.com

- **دار عصير الكتب**

مصر – 2020

ثاني اثنين

رواية

أدهم شرقاوي

2020

kalemat

الإهداء

هذه الرِّواية مُهداة إلى الرَّجل الذي لم يكُنْ نبيًّا
ولكنَّه لم يكُنْ أيضًا من النَّاس
كان يقفُ في منزلةٍ وحدَه
أدنى من الأنبياءِ قليلاً
وأعلى من الناس كثيراً
إلى أبي بكر الصِديق

«إن الله بعثني إليكم
فقلتم: كذبتَ
وقال أبو بكر: صدقَ
وواساني بماله ونفسه، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!»

النَّبي ﷺ

أَيَنْقُصُ الدِّينُ وأنا حَيٌّ؟!

أبو بكر الصِّديق

أما قبل:

وأتى من بعيدٍ تفوحُ منه رائحة الصحراء...

عربيٌّ خالص لا شِية فيه!

نحيلٌ كأنه سُنبلة قمح!

دقيق السَّاقين كأنه عدَّاء، ولكن ثمة شيء فيه يخبرك أنَّ له سِباقاً غير سباقات النّاس!

وجهه أبيض نجا من شمس الصحراء بأعجوبة!

ظهره فيه انحناء قليل كأنّه كان يحملُ شيئاً ثقيلاً على كتفيه طوال عمره، ولكن نظراته الثاقبة تخبرك أن هذا الحِمل لم يكن بإمكان غيره أن يحمله!

لحيته مخضوبة بحناء مائلة إلى الحُمرة كأنَّ الشمس لحظة المغيب لم تجد لها مأوى غيرها!

ثيابه بالية، ولكن الرجل عليه مسحة عراقة التاريخ!

أردتُ أن أسأله: من أنتَ؟!

ولكن ثمة رجال تفقِدُ لغتكَ في حضرتهم، وقد كان واحداً منهم!

أطلتُ النظر إليه وصمتي يُكبلني، وفضولي يقتلني لأعرف من هو ولكنه أزاح عني كل هذا حين قال: لكَ السَّلام.

صوته عذب كأن الحروف تخرج من حِجر إسماعيل لا من فمه، فيه رِقَّة كدعوات الأمهات، وخشوع كتلاوة سورة الرحمن!

رددتُ عليه على الفور: ولكَ السّلام.

ثم قال: من الرجل؟

فقلتُ: من العرب، وأنتَ؟

- أبو بكر الصديق!
- أبو بكر مؤدِّبُ المرتدين؟!
- أبـو بكـر ثانـي اثنيـن إذ هما فـي الغـار ولا لقبَ أحـبَّ إليّ مـن هذا!

هـو أبـو بكـر إذا، الرجـلُ العـدَّاءُ الـذي كان يركـضُ إلـى الله بقلبـه فلـم يسـبقه أحـد! والـذي حمل الإسـلام علـى كتفيـه كما لـم يفعـل أحد. وفـي حضـرة أبي بكـر لا يعـرفُ المرءُ مـا يفعل، أنـا أمـام معجزة مـن لحـم ودم. والمعجـزات لا تمرُّ بنـا كل يوم!

أما بعد:

عندما ينتهي الأنبياء يبدأ أبو بكرٍ، وعندما ينتهي أبو بكر يبدأ الناس! هكذا هو فئة وحده! يأتي دائماً أولاً ومن المحال أن يسبقه إلى الله أحد! وحين تعلَّق الأمر بالسخاء والصدقة أتى عمر بن الخطاب بنصف ماله ممنّياً نفسه أن يسبق أبا بكرٍ هذه المرّة، فوجد أن أبا بكرٍ قد جاء بماله كله! وحين تعلّقَ الأمر بالثبات والشجاعة فاق أبو بكرٍ الجميع كالعادة!

أبو بكر محفور في أذهاننا على أنه ذاك الشخص العذب الرقيق، وهذا صحيح فهو أرحم الأمة بالأمة بشهادة النبي ﷺ، وعمر بن الخطاب محفور في أذهاننا على أنه ذاك الشخص الصلب، القوي الشرس إذا ما تعلق الأمر بالدفاع عن الإسلام، وهذا صحيح أيضاً. ولكن أبا بكرٍ أثبت في مواقف كثيرة أنه أصلب وأقوى وأشرس الصحابة جميعاً بمن فيهم عمر بن الخطاب نفسه!

كان أبو بكر يُمثّل القوة الناعمة، هذه القوة التي تلين حتى يعتقدُ المرءُ أنها لا تستطيع أن تشتدّ أبداً، ثم إذا ما جدَّ الجدّ، ووقع الفأس في الرأس، وجدتَ تلك النعومة كشَّرتْ عن

أنيابهـا، ففاجـأت أعداءهـا وأحبابها على السَّـواء! الغـزال الناعم كان بإمكانـه أن يتحـول فـي الظـرف الحالـك إلـى أسـد هصور، وهـذا هو أبـو بكـرٍ باختصار!

وكـي لا يكـون الـكلام رجمـاً بالغيب، وادعـاءً من غيـر دليل، فلنقـارن بيـن أبي بكـر وعمر في بعـض المواقف، وهـذه المقارنة ليسـت انتقاصـاً مـن عمـر بـن الخطـاب، معاذ اللـه، فعمـر حيثُ يضـعُ قدمـه أتشـرفُ أن أضع رأسـي! ولكـن لأن عمر فـي حزمه وقوتـه لا يُجـارى ومع هـذا أبو بكر سـبقه! المقارنة هنا لشـرح ما أسـميته القـوة الناعمـة التـي يمثلها أبـو بكر، وهـي ضرورية لفهم شـخصية أبـي بكر بمختلـف جوانبها، أبـو بكر كان رقيقـاً كوردة، بالمقابـل كان له شـوك قـاسٍ يجعل قطافه مسـتحيلاً!

يـوم الحديبيـة غضـبَ الصحابـة رضـوان اللـه عليهـم جميعاً للـه، إذ رأوا فـي بنـود الصلـح إجحافـاً، حتـى أنهـم أول الأمـر لـم يمتثلـوا لأمـر النبـي ﷺ حيـن أمرهـم أن يحلقـوا رؤوسـهم وينحـروا هديهـم ويفكـوا إحرامهـم!

فدخل النبي ﷺ خيمته وقال لأم سلمة: يا أم سلمة ما شأن الناس؟!

فقالـت لـه: يـا رسـول الله قـد دخَلَهم مـا رأيـتَ، فـلا تكلَمنَّ منهـم إنسـاناً، واعمَـدْ إلـى هديـك فانحـره، واحلِـقْ، فلـو فعلتَ ذلـك فعلـوا مثلك!

فقـام النبـيُّ ﷺ فلـم يُكلِّـم أحـداً، فنحـرَ هديه، وحلق رأسـه، فلمـا رأوه، قامـوا فنحـروا وحلقوا!

وكان عمـر بـن الخطـاب يومهـا مـن بيـن الصحابـة الذيـن غضبـوا للـه، أمـا أبـو بكـر فـكان كالعـادة فئـة وحـده!

جـاء عمر إلـى النبي ﷺ يفيضُ حُبـاً لله ورسـوله، يملؤُه الغضب لهـذا الديـن يريـده أن يكـون عزيـزاً، وقـال لـه: يا رسـول الله ألسـنا علـى حـق وهم علـى باطل؟

قال: بلى.

قال: أليسَ قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟

قال: بلى.

فقـال عمـر: ففيـمَ نعطـي الدّنيّـةَ مـن أنفسـنا، ونرجـع ولمَّـا يحكـم اللـه بيننـا وبينهـم؟!

فقـال لـه النبـي ﷺ: يـا ابـن الخطـاب إنـي رسـول اللـه، ولن يضيعنـي الله!

فانطلـقَ عمـر ولـم يصبـر متغيظـاً، فأتى أبا بكـر وقال لـه: يا أبا بكر ألسـنا على حـق وهم علـى باطل؟

فقال له أبو بكر: بلى.

فقال: أليسَ قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟

فقال: بلى.

فقال عمر: فعلامَ نعطي الدَّينةَ في ديننا؟!

فقـال لـه أبـو بكـر: يـا ابـن الخطـاب إنَّ الرجـل لنبـي، ولـن يُضيّعـه اللـه، فَالـزَم غَـرزهُ أي تمسَّـك بأمـره!

هـذه إحـدى نقـاط قوى أبـي بكـر، التسـليم الكامل لأمـر الله ورسـوله دون جـدال ومناقشـة. والتسـليم والانصيـاع يحتـاج أحيانـاً إلـى قـوة أكبر مـن المعارضـة والجـدال! ثـم دارت الأيام وتبيَّـن للجميـع أن صلـح الحديبيـة التي حسـبوها هزيمـة معنوية كانـت فتحـاً عظيمـاً، وهكذا انتصـرتْ قوة أبـي بكـر الناعمة كما هـي دوماً!

وحيـن أطلَّـتْ عائشـة مـن حجرتهـا علـى الصحابـة وقالـت لهـم أكثـر جملـةٍ مؤلمـة فـي تاريخ هـذا الكوكـب: مات رسـول اللـه! رفـض عمـر بـن الخطـاب تصديـق الخبـر، وارتفـع صوته فـي المسـجد من هـول الفاجعـة، واعتبـر أن النبـيَّ ﷺ إنما ذهب لميقـات ربـه كما فعل موسـى عليه السَّـلام من قبل، ثـم توَّج هذا كلـه بأن سـلَّ سـيفه، وقال: واللـهِ ليرجعنَّ رسـول اللـه، فليقطعن أيـدي رجـال زعموا أنـه مات!

ومعـذور واللـهِ عمـر، إننـي أكتبُ عـن حادثة مـوت النبي ﷺ بعـد ألـفٍ وأربعمئـة سـنة، والألـم يعتصرنـي، وقلبي ينفطـرُ وأنا أتحسـس قـول عائشـة مـات رسـول اللـه! صعبٌ جـداً علـيَّ بعد مضـي هـذه القـرون أن أتخيَّـلَ أن النبيَّ ﷺ قـد ضمَّه قبـر، وأُهيلَ عليـه التـراب! فكيـف لـو كنـتُ يومهـا معهـم ونـزل الخبـر عليَّ فجـأةً كالصاعقة؟!

ولكـنَّ أبـا بكـرٍ كان له شـأن آخر، هـذا ليس موضع رقـة وإنما

موضـع صلابـة وتجلـد، وأبـو بكـر يكـون دائمـاً كمـا تقتضـي المواقـف لـه أن يكـون! دخـلَ المسـجدَ ورأى عمـرَ فـي قمـة غضبـه وحزنـه وتأثـره، فلـم يكلمـه، وإنمـا دخـل بيـت عائشـة، واقتـرب مـن النبي ﷺ وهو مسـجىً مغطـىً، فكشـف الغطاء عن وجهـه الشـريف، وقبَّلـه، وقـال لـه: بأبـي أنت وأمـي، مـا أطيبكَ حيـاً وميتـاً! أمـا الموتـة التـي كتبها اللـه عليـكَ فقد ذقتهـا، ثم لن يصيبـك بعدهـا موتـة أبداً!

ثـمَّ ردَّ الغطـاء علـى وجهـه، فخـرجَ وعمـر مـا زال يخطـبُ فـي النـاس، فقـال لـه: علـى رِسـلك يا عمـر فأنصِـتْ، فلـم يلتفـتْ إليه عمـر وتابـع كلامـه، فلمـا رآه أبـو بكـر علـى هـذه الحـال، تركـه، وأقبـل علـى الناس وقال: أيهـا الناس، إنه مـن كان يعبـدُ محمداً فإن محمـداً قـد مـات، ومـن كان يعبـدُ الله فـإنَّ اللـه حي لا يمـوت، ثم تـلا ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُـولٌ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُـلُ أَفَـإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِـلَ انْقَلَبْتُـمْ عَلَـى أَعْقَابِكُمْ وَمَـنْ يَنْقَلِـبْ عَلَى عَقِبَيْـهِ فَلَنْ يَضُـرَّ اللَّهَ شَـيْئاً وَسَـيَجْزِي اللَّهُ الشَّـاكِرِينَ﴾

فعلم الناس أن النبي ﷺ قد ماتَ حقاً!

لـو كان أبـو بكـر رقيقـاً فقـط لـكان أولـى بالانهيـار يومهـا مـن عمـر، ولكـن أبـا بكـر قـوة ناعمـة. رقيـق فـي موضـع الرقة، ثابـت فـي موضـع الثبـات، لهذا لـم يكـن مسـتغرباً أن يكـون أكثر

الصحابـة ثباتـاً هـو أكثرهـم رقـة، إنـه أبـو بكـر النمـوذج الفريـد الـذي لا يوجـد منـه نسـخة ثانيـة!

أمـا القـوة الناعمـة فكشَّـرتْ عـن أنيابهـا يـوم ولـيَ أبـو بكـر الخلافـة وارتـدتْ العـربُ، واجتمـع مجلـس الدفـاع الإسـلامي الأعلـى بقيـادة الخليفـة الجديـد يبحثـون مـا يفعلـون أمـام هـذا المـأزق. كان رأي جنـرالات التوحيـد يومهـا أن يُفاوضـوا المرتديـن، أمـا أبو بكر وحده مـن دون الجميع قـرر أن يُحاربهم! الرجل الأسـيف الـذي كان يُبكيه القـرآن لبسَ لأمـة الحرب حين قـرر الفرسـان الأشـداء أن يخلعوهـا! قـال لـه عمر بـن الخطاب يومهـا: كيـف تقاتلهـم وقد قال رسـول اللـه ﷺ: أُمـرتُ أن أقاتل النـاس حتـى يقولـوا لا إلـه إلا الله، فـإن قالوها فقـد عصموا مني دماءهـم وأموالهـم إلا بحقهـا؟!

فقـال لـه أبـو بكـر: واللـهِ لأقاتلـنَّ مـن فـرَّق بيـن الـزكاة والصـلاة، وواللـهِ لو منعونـي عقال بعيـر كان يؤدُّونه إلى رسـول اللـه لقاتلتهـم عليـه!

فقال له عمر: يا خليفة رسول الله تألّفِ الناس وارفقْ بهم.

فجذبـه أبـو بكر من ثوبه وقـال له: أجبَّار فـي الجاهلية، خوَّار في الإسـلام يـا عمـر؟! إنـه قـد انقطـع الوحـي، وتـم الديـن، أينقـصُ الدّيـنُ وأنـا حـيٌّ؟!

فمضـوا علـى بركـة اللـه، وأدَّبـوا المرتديـن، وأعـادوا القبائل إلـى حظيـرة الإسـلام، وأثبـتَ أبو بكر مـرةً أُخـرى أنه يـرى بنور اللـهِ، وأنـه وإن كان أرقَّ مـن وردة فهـو أيضاً أصلب مـن الصّخر!

ثـم هـا هو أبـو بكر هنـا... فلمـاذا نحكـي عنـه مـا دام بإمكانه أن يحكـي هـو عـن نفسـه، لا شـيء أروع مـن أن نسـمع الحكاية مـن فـم الحكاية نفسـها!

ألتفِـتُ إليـه وأسـأله: يا خليفة رسـول اللـه، متى سـمعتَ أول مـرةٍ بالدِّين؟

– أول مـرة سـمعتُ بالديـن قبـل البعثـة إذ كنـتُ يومـاً جالسـاً بفنـاء الكعبـة، وعلـى مقربة منـي يجلسُ زيـدُ بن عمرو بـن نفيل، فمـرَّ بـه أُميـة بـن أبـي الصلت فقـال لـه: كيـف أصبحتَ يـا باغي الخير؟

قال: بخير.

فقال أُمية: فهل وجدتَ؟

قال: لا، ولم آلُ من طلب.

فلمـا سـمعتُ حديثهما، خرجتُ أبحـثُ على ورقـة بن نوفل، وكان كثيـر النظـر إلى السـماء، كثيـر همهمة الصـدر، فلما وجدته استوقفته، ثـم قصصـتُ عليه ما كان بيـن الرجلين عنـد الكعبة.

فقـال: نعـم يا ابن أخـي، يخـرجُ نبيٌّ من أوسـط العربِ نسـباً، ولـي علم بالنسـب، وقومك أوسـط العرب نسباً، وما أحسـبه إلا أن يكون مـن قريش.

- فما سبب الحوار بين زيد بن عمرو بن نُفيل، وأمية بن أبي الصلت، أعني أليس مستغرباً أن الرجلين يتحدثان عن نبي آخر الزمان وهما من قريش التي تعبدُ الأصنام؟

- لم يكن الرجلان على دين قريش!

- وكيف هذا؟

- أما زيد بن عمرو بن نُفيل فكره دين قريش، ورأى أن عبادتهم شرك، فخرجَ إلى الشام قبل البعثة يبحث عن الدين الحق، فلقيَ عالماً من علماء اليهود، فقال له: أخبرني عن دينكم، فلَعلِّي إن رأيتُ الحقَّ فيه اتبعته.

فقال له: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله!

فقال له زيد: ما أفِرُّ إلا من غضب الله، وما أحمل من غضب الله شيئاً وأنا أستطيع أن لا أحمله، فهل تدلني على غيره ؟

- ما أعلمه، إلا أن تكون حنيفاً.

- ما الحنيف؟

- دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبدُ إلا الله !

فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى، فقال له: أخبرني عن دينكم فلعلي إن رأيتُ الحقَّ فيه اتبعته.

- لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله.

- ما أفِرُّ إلا من لعنة الله، وما أحملُ من لعنة اللهِ شيئاً وأنا

أستطيع أن لا أحملها، فهل تدلني على غيره؟

– ما أعلمه، إلا أن تكون حنيفاً.

– ما الحنيف؟

– دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبدُ إلا الله.

فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السَّلام، خرج من عندهم عائداً إلى مكة، وقال: اللهمَّ إني أشهدك أني على دين إبراهيم.

وكان زيد هو الذي جاء بالحنيفية دين إبراهيم عليه السَّلام إلى مكة، وكان يوماً مسنداً ظهره إلى الكعبة، يقول للناس: يا معشر قريش، واللهِ ما منكم من أحد على دين إبراهيم غيري!

وكان دمث الأخلاق، حلو المعشر، يصل الرحم، ويكرم الضيف، ويحيي الموؤودة، ويقول للرجل إذا أراد أن يئد ابنته: لا تقتلها أنا أكفيكَ مؤونتها! فيأخذها منه، فإذا ترعرعت يقول قال لأبيها: إن شئتَ دفعتها إليك، وإن شئتَ أبقيتُها عندي، وأنا أكفيكَ مؤونتها!

وكان يأبى أن يأكل ما تذبح قريش، لأنه علِمَ في توحيده الخالص أن الذبح إنما يجب أن يكون لله، وقد جلسَ يوماً على مائدة مع النبيِّ ﷺ قبل بعثته، وكان شيخاً كبيراً يومها، فلما وُضع الطعام أبى النبي ﷺ أن يأكل من ذبائح قريش لذات

السبب، وكذلك لم يأكل زيد من الذبائح، وقال لقريش: إني لستُ آكُلُ مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكُلُ مما لم يُذكر اسم اللهِ عليه!

وكان يعيبُ على قريش ذبائحهم، ويقول: الشَّاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض العشب، ثم تذبحونها على غير اسم الله!

- يا الله، يا له من رجل يا خليفة رسول الله، خرج يجوبُ الأرض باحثاً عن الحق.
- نعم يا بُني يا له من رجل، هذا ليعلم الناس أنه من أراد الله بصدقٍ يسَّر اللهُ له الطريق إليه.
- فما فعل زيدٌ بعد البعثة؟
- لم يدرك زيدٌ البعثة، وإنما توفي قبلها بخمس سنوات، دون أن يعلم أن ذلك الذي جلسَ يوماً معه على مائدة واحدة، ورفضَ أن يأكل من ذبائح قريش هو نبيٌّ آخر الزمان!
- فهل ذكر النبيّ ﷺ زيداً بعد البعثة بشيء؟
- أجل يا بُني، لقد ذكره كما يليقُ بمؤمن صادق أن يُذكر.
- وكيف هذا يا خليفة رسول الله؟
- كان زيدُ بن عمرو بن نفيل صديقاً لعامر بن ربيعة، فقال له يوماً: يا عامر إني خالفتُ قومي، واتبعتُ ملة إبراهيم وإسماعيل، وما كانا يعبدان، وكانا يصلِّيان إلى هذه القبلة،

وأنـا أنتظـرُ نبيـاً من بنـي إسـماعيل يُبعـث، ولا أراني أدركـه لكبر سـني، وأنـا أؤمـن بـه وأصدّقـه، وأشـهدُ أنه نبـي، فإن طالـتْ بك حيـاة، فأقرئـه مني السَّـلام!

– يـا اللـه! مـا هـذا الإيمـان الـذي يقـفُ أمامـه المـرءُ إعجاباً وإجـلالاً؟

– هو كذلك والله.

– فهل أبلغَ عامرٌ سلام زيدٍ إلى النبي ﷺ؟

– أجـل، لقـد فعـل، فمـا كان اللـه إلا أن يصـدُق هـذا الرجل الـذي صدقَـه، لمَّـا أسـلم عامـر بـن ربيعة، جـاء إلـى النبيّ ﷺ وأخبـره بالـذي كان بينـه وبين زيـد، وأبلغه سـلامه له. فـردَّ النبـيُّ ﷺ السَّـلام، وترحَّـم عليـه، وقـال: «لقـد رأيته فـي الجنةِ يسـحبُ ذيـولاً»!

– فهل كان لزيدٍ من أولاد؟

– أجـل يـا بُنـي، ابنه سـعيد بـن زيـد أحد العشـرة المبشـرين بالجنـة، ذريـة طيبـة بعضهـا مـن بعض.

– فهل ذكر النبيُّ ﷺ لسعيدٍ شيئاً عن أبيه؟

– أجـل قـد فعـل، فقد قـال يومـاً لسـعيد: إن أبـاكَ يُبعـثُ يوم القيامـة أمـةً وحـده بينـي وبين عيسـى.

– هـذا عـن زيـد بـن عمـرو بـن نُفيـل يـا خليفـة رسـول الله، فمـاذا عـن أمية بـن أبـي الصلت؟

– تلك قصة أخرى، مشرقة في بدايتها، محزنة في نهايتها.

– وكيف ذلك؟

- أمية بن أبي الصلت شاعر جاهلي أبوه من ثقيف، وأمه من قريش، سكن الطائف، وأبوه الصلت كان شاعراً أيضاً، ولم يكن الطائف كثير الشِّعر، إذ أنّ الشّعر كان يكثر في العرب التي تخوض الحروب. كالأوس والخزرج، أو القبائل التي تُغير أو يُغارُ عليها. لهذا قلَّ شعر الطائف لمسالمتها العرب، وقلَّ شعر قريش لحرمتها عند العرب إذ لم تكن تُحارَب أو تُحارِبُ إلا نادراً، على أنّ أميّة بن أبي الصّلت كان أشعر أهل الطائف في زمانه.

- فماذا عن حديثه مع زيد وانتظاره نبيَّ آخر الزمان؟

- كان أمية في الجاهلية يتصلُ بأهل الكتاب. ويسمع أخبارهم، ويعلم أن نبياً قد حان وقت خروجه، وكان على التوحيد. فلم يكن يعبد الأصنام في الجاهلية، وقد ترك في شعره من معاني التوحيد ما لم يتركه أحد من شعراء الجاهلية فكان يذكر الجنَّة والنار، والملائكة، والحشر والحساب.

- وهل أدركَ البعثة أو توفي قبلها كما حدث لزيد؟

- أدركَ أمية بن أبي الصلت البعثة، ولكن للأسف لم يُسلم!

- لم يُسلم وقد كان ينتظرُ النبيَّ ﷺ بشغف؟

- هذا ما حدث، فلما بلغه مبعث النبيّ ﷺ لم يؤمن به، إذ يُقال أنه كان يُمنى نفسه أن يكون هو نبي آخر الزمان.

- ومتـى مـات؟ أقصـد ألم يعـشْ ما يكفـي بعد البعثـة ليرجع إلى الحق ويسـلم؟
- بلـى عاشَ مـا يكفي، فقد توفي في السَّـنة التاسـعة للهجرة، قبـل وفاة النبي ﷺ بعـامٍ واحدٍ!
- فهل ذكره النبيُّ بشيءٍ من حديثه؟
- نعـم لقـد ذكـره، فقـد كان النبـيُّ ﷺ معجبـاً بشـعره لمـا يتضمنـه مـن معاني التوحيـد، وكان كلما سـمعَ شِـعره قال عنـه: آمـن شِـعره وكفـر قلبه!

وسمعَ مرةً شِعراً له فقال: كاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم.

– هـل يسـمح لـي خليفـة رسـول اللـه أن أرجع بـه أبعـد زمناً مما نتحـدث فيه الآن، فاسـأله عن شـيءٍ سـمعته؟

– فإلى أين تريد أن ترجع تحديداً؟ وعن أي شيء تريدُ أن تسأل؟

– سـمعتُ أنـكَ لم تسـجد لصنم قط فـي الجاهليـة، فهل هذا صحيح ؟

– أجـل يـا بُنـي، وهـذا من فضـل اللـهِ وكرمـه على عبـده أن نـزَّه جبهتـه من السـجود لغيـره حتى فـي الجاهليـة حين ما كنـتُ أعرفُ مـا الدين ومـا الإيمـان، فحين ناهـزتُ الحلم أخذنـي أبـي أبـو قحافة من يـدي ثـم انطلق بي إلـى مخدع فيـه الأصنـام، ثـم قـال لـي: هـذه آلهتـك الشُّـم العوالـي، وتركنـي وذهـب، فدنـوتُ مـن الصنـم وقلـتُ: إنـي جائع فأطعمنـي، فلـم يـرد! فقلتُ: إنـي عارٍ فاكسـني، فلـم يرد! فألقيـتُ عليـه حجـراً فخرَّ علـى وجهه.

– ألا ترى في هذا اصطفاءً مبكراً لكَ يا خليفة رسول الله؟

– مـا ينبغـي للمـرءِ أن يُزكي نفسـه يا بُنـيَّ، ولكني أحمـدُ الله سـبحانه إذ جعلنـي مـن القلـة النادرة التـي لم تُشـرك به في الجاهليـة وإن لـم تكـن تعبـده حـقَّ عبادتـه إذ لـم يكن بعد إسـلام ولا نبوة.

- ولكنـي مـا زلـتُ أرى فـي الأمـر اصطفـاءً، فكمـا اصطفى الله نبيَّـه مـن الشـركِ والفواحـش، اصطفـى صاحبـه وخليفتـه، فأنـتَ الوحيـد الذي يُقـال له خليفة رسـول الله، ومـن جاؤوا بعـدك إنما هم خلفـاؤك أنـتَ، لا خلفاؤه هو، وقـد كان حَرِيّـاً بمن سـيحمل هذا اللقب الفاخـر، والمركز المرمـوق أن يكـون فيـه شـيء مـن اصطفـاء النبوة.
- مـا أحسـبك يـا بُنـي إلا يغلـبُ عليكَ حسـن ظنك بـي، وما زلـتُ أحمـدُ اللـه على العصمـة مـن الشـرك، ولا أعلو بها علـى النـاس ولا أفخـر، فلـولا أن تداركتنـي رحمـة ربـي لمسـني شـيء مـن الشـرك ممـا مـسَّ القوم.
- يا لتواضعك!
- يـا بُنـي إن العاقـل مـن اتهمَ نفسـه في الشـر، واعتـرف لربه بالخيـر، ومـا أزيـد علـى أن أحمـده علـى أن عصمنـي من الشرك.
- حسناً، فماذا عن الخمر يا خليفة رسول الله؟
- ما بها؟
- هل شربتها في الجاهلية؟
- لا واللهِ ما عرفتُ طعمها، فقد كرهتها مبكراً بفضل اللهِ.
- وكيف كرهتها وأنت لم تذقها؟
- بـا بُنـي أن العاقـل مـن اتّعـظَ بغيـره، والجاهـل مـن كان موعظـةً لغيـره، وإنـي أحمـدُ اللـه أن جعلني اتّعـظُ بغيري، ولـم يجعلنـي عظـةً لغيـري.

- وكيف اتّعظتَ بغيرك في مسألة الخمر؟
- مـررتُ فـي الجاهلية وأنا في ريعان شـبابي برجل سـكران، يمسـك بعـرة البعيـر ويقربها مـن فمه يريـدُ أن يأكلهـا، فإذا صـارت قريبـاً من فمـه، شـمَّ ريحهـا فألقاها من يـده، وهو يفعـل هـذا مـراراً وتكـراراً! فقلـتُ فـي نفسـي واللـهِ لا أشـربها قط، إنهـا تذهبُ بالعقـل. وإذا ذهـبَ العقل ذهبتْ معـه المـروءة، ولـم أكن لأفـرط فـي مروءتي.
- وما زلتَ تصرُّ على أنه لا اصطفاء في الأمر؟
- ما زلتُ أحمدُ الله على العافية ولا أزيد!
- فماذا عن صداقتك مع النبي ﷺ في الجاهلية؟
- كنـتُ والنبـي ﷺ أترابـاً، فـكان يكبرنـي بعاميـن وبضعـة أشـهر، وكان أحسـن قريـش خُلقـاً، وأصدقهـا حديثـاً، وأوثقهـا أمانـة، فالتقينـا كمـا يلتقي فتيـان القبيلـة الواحدة، فنشـأتْ بيننـا صداقـة متينـة، أحببتـه وأحبَّنـي، وكان أثيـراً علـى قلبـي، وكنـتُ أثيراً علـى قلبـه، والمرءُ يعـرف مكانته فـي قلـوب الناس!
- هنيئاً لكَ.
- أي واللهِ هنيئاً لي، فعلى مثله يُهنَّأُ المرءُ ويُغبط.
- فماذا كنتَ تعمل في الجاهلية؟
- كنـتُ تاجـراً، وكذلـك كان أغلـب رجـال قريـش، وكنـتُ أذهـبُ للتجـارة فـي رحلتـي الشـتاء والصيف، في الشـتاء إلـى اليمـن، وفـي الصيـف إلـى الشـام، فأشـتري وأبيـع،

وأصـدقُ الحديـث، ولا أغـش، فبـارك اللـه لي فـي رزقي، وكان رأس مالـي عنـد البعثـة أربعيـن ألـف درهـم.

- أي أنكَ كنتَ من أثرياء مكة قبل البعثة؟

- كنـتُ ثريـاً فـي مالـي فقـط، فقيـراً فـي دينـي، فلمـا نطقتُ بالشـهادتين صـرتُ أثـرى أهـل الأرض!

- أثرى أهل الأرض بالشهادتين؟

- يـا بُنـيَّ إن اللـه يعطـي الدنيـا لمـن يُحبـه ولمـن لا يُحبـه، ولكنـه لا يعطـي هـذا الديـن إلا لمن يُحبـه، إنَّ اللـه أعطى الدنيـا كلهـا لسـليمان عليـه السـلام، وكذلـك أعطاهـا للنمـرود، فلـو كانـت معيـاراً للتفاضـل بيـن النـاس، لمـا أعطاهـا لنبـي وطاغيـة!

- صدقـتَ يا خليفة رسـول اللـه، فحدثني عن قصة إسـلامك مـا دمنا قـد ذكرناها فقد حـان وقتها.

- كل مـا فـي الأمـر أنـي كما أخبرتـكَ كنـتُ صديقـاً للنبي ﷺ، وكنـتُ أعرفُ أنـه صادق لا يكـذب على النـاس حتى يكذب علـى اللـه، وكنـتُ جالسـاً يومهـا فـي مجلـس مـن مجالـس قريـش، فذكروا أن محمـداً ﷺ يعيبُ عليهـم آلهتهم ودينهم، ويقـول أنـه جـاء بديـنٍ خيـر مـن دينهـم... فخرجـتُ أبحثُ عنه أريدُ أن أسـمع منه بشـأن هـذا الذي يتحدثون بـه، فلقيته، فقلـتُ لـه: يـا أبـا القاسـم فقدتُـكَ اليومَ فـي مجلـس قومكَ، وقـد ذكـروكَ واتهموكَ بالعيـبِ لآبائهـم وأمهاتهـم وآلهتهم.

فقال لي: يا أبا بكر إني رسول اللهِ، وإني أدعوك إلى الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد.

فقلتُ: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهد أنكَ يا محمدّ رسول الله.

- هكذا بكل بساطة دون أن تتريثَ أو أن تُقلِّبَ الأمور في عقلك ؟
- يا بُنيَّ بعض الكلام ينزلُ في قلبكَ مباشرة، والحمدُ للهِ أن جعلني أول هذه الأمة إسلاماً وتصديقاً وتسليماً، ويكفيني شرفاً شهادة النبي ﷺ حين قال: ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظرٍ، إلا أبا بكر، فحين دعوته أجابني وما تردد!
- هنيئاً لكَ هذه الشهادة يا خليفة رسول الله.
- بارك الله بك يا بُني.
- فما أول ما فعلته بعد إسلامك؟
- أول ما أسلمتُ نظرتُ فيمن أثق ممن أعرف وأتوسم به الخير، وبدأتُ أدعوهم إلى الله
- فمن أسلم منهم على يديك؟
- ثلة قليلة العدد، كثيرة البركة، اصطفاهم الله بأن كانوا حجر الأساس لهذا الدين العظيم، وهم الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عُبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن مظعون، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوفٍ، وأبو سلمة بن عبد

الأسـد، والأرقـم بـن أبـي الأرقـم، وقـد دعوتهـم أفـراداً سِـراً، وجئـتُ بهـم إلـى النبـيَّ ﷺ فأسـلموا بيـن يديـه.

- كل هؤلاء في صحيفتك؟
- فضل اللهِ يُؤتيه من يشاء من عباده يا بُني.
- فماذا عن أهل بيتك؟
- مـا كان لـي أن أدعـو النـاس إلى الخير، وأنسـى أهـل بيتي، فالأقربـون أولـى بالمعـروف، لقـد دعـوتُ أهـل بيتـي، فأسـلمتْ زوجتـي أم رومـان، وأسـلم أولادي عبداللـه، وعائشـة وأسـماء، وخادمـي عامـر بـن فهيـرة.
- وهؤلاء العظماء في صحيفتك أيضاً؟
- قلتُ لكَ من قبل، هذا من فضل اللهِ يُؤتيه من يشاء.
- فماذا عن إسلام أبيك وأمك يا خليفة رسول الله؟
- أمـا أبـي فتأخـر إسـلامه إلـى يـوم فتـح مكـة، وأمـا أمـي فأسـلمتْ باكـراً فـي بدايـة الدعـوة إلـى اللـه.
- فهل يأذن خليفة رسول الله أن يحدّثني عن إسلام أمه؟
- لـكَ هـذا يـا بُنـي، أما يـوم إسـلام أمي فكانـت بدايته شـاقة عسـيرة، ثم مـنَّ الله علـى عبده أبـي بكر بأن جعـل خاتمته سـعيدة، اجتمعنـا يومهـا فـي دار الأرقـم بـن أبـي الأرقـم ثمانيـة وثلاثيـن رجـلاً ليـس غيرنـا علـى ظهـر الأرض من يوحـده ويعبـده حـقَّ عبادته! فألحـحـتُ على النبـيِّ ﷺ في الجهـر بدعوتنـا علـى مرأى ومسـمع مـن قريش.

فقال لي: يا أبا بكرٍ إنَّا قليل.

فمـا زلـتُ أُلـحُّ عليـه حتـى أجابنـي، فخرجنـا إلـى الكعبـة، فقمـتُ فـي الناس خطيبـاً، وكنـتُ أول خطيب في الإسـلام يدعو إلـى اللـه بعـد النبي ﷺ

- فهل سـمحتْ لـكَ قريشٌ يومها بالـكلام هكذا جهـاراً نهاراً عند الكعبة؟

- أوتحسبُ أن قريشاً كانت بتلك السماحة؟

- فما الذي حدث إذاً؟

- كنتُ سأحدّثك ولكنك قطعتَ عليَّ حديثي!

- أعتـذرُ منـك يـا خليفـة رسـول اللـه، وواللـهِ مـا هـي إلا اللهفـة، وحـب المعرفـة، فاعـذر فضولـي.

- لا بـأس عليـك يـا بُنـي، المهم وأنـا أخطبُ في النـاس، قام إلـيَّ رجالٌ مـن قريـش يضربونني ضربـاً شـديداً، ودنا مني عتبـة بن ربيعة وضربنـي على وجهي بنعليـه المخصوفتين، حتـى ورم وجهـي، وأغشـيَ علـيَّ، فحملونـي إلـى داري وهـم لا يشـكون فـي موتـي، فجـاء قومـي بنـو تيـم وقالوا لقريـش: واللـهِ لئـن مـاتَ أبو بكـر لنقتلـنَّ عتبة بـن ربيعة. ثـم رجعـوا إلـيَّ فكلّمونـي وأنـا لا أجيب من شـدة مـا نزل بـي من الضـرب واللطم، ثم اسـتفقتُ قبل المغـرب، وكان أول مـا قلـتُ لهـم: مـا فعلَ رسـول الله؟

- تنسى نفسك وما أصابكَ وتسأل عن رسول الله؟

- ومـا لـي لا أسـال عنـه، فإنمـا أنـا رجـل مـن المسـلمين، وهـو الديـن كلـه، ومـا يَسُـرّني أن أُعافـى جسـدي ويُشـاك هـو بشـوكة.

- بهذا القلب سبقتَ الناس يا أبا بكر!
- يـا بُنـي إن هذا الدين مسـؤولية وليس انتسـاباً، السـر يكمن فـي نظرتـك للأمـر، فحين تـرى أنك مجـرد تابع لـن تفعل إلا الفـرض فقـط، أمـا حين تحمل هـذا الدين علـى كتفيك فعليـكَ أن تهبـه وقتك ودمـكَ ومالك.
- بهـذا الفهـم سـبقتَ الناس يـا خليفة رسـول الله، فمـا الذي حدث بعـد ذلك؟
- قالـو لأمـي: اُنظـري أن تُطعميه شـيئاً أو تسـقيه إيـاه، فأبيتُ أن آكل أو أشـرب حتـى أعلـم مـا حـلَّ بالنبـي ﷺ، فلمـا يئسـوا منـي، وخرجـوا عنـي وخلـوتُ بأمـي قلتُ لهـا: ما فعـلَ رسـول الله؟
فقالت: واللهِ ما لي علم بصاحبك.
فقلتُ: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه.
- فلماذا أم جميل بنت الخطاب تحديداً؟
- لأنهـا مـن أوائـل النسـاء اللاتي أسـلمن للهِ ورسـوله مـع زوجها سـعيد بن زيـد، وهي أخت حبيبـي وصديقي عمر بـن الخطاب، ولـم يكـن قد أسـلم بعـد، وكان بنو عـدي يخفون إسـلامهم إذا أسـلم الواحـد منهـم خوفـاً من بطشـه، فسـبحان من جعل أشـد الرجـال عـداءً لدينه، أشـدهم فيمـا بعد دفاعـاً عنه.
- فما الذي حدث بين أمك وأم جميل بنت الخطاب؟
- ذهبـتْ أمـي إليهـا وقالـت لهـا: إن أبـا بكـر يسـألك عـن محمـد بـن عبـد اللـه.

فقالـت لهـا أم جميـل: مـا أعـرفُ أبا بكـر، ولا محمـد بن عبد اللـه، وإن كنـتِ تُحبين ذهبـتُ معكِ إلـى ابنكِ.

فقالت لها أمي: نعم.

فجـاءت بهـا أمـي إلـيّ، فلمـا رأتني علـى هـذه الحـال قالتْ: واللـهِ إن قومـاً نالـوا هـذا منكَ لأهـل فسـقٍ وفجور، وإنـي أرجو أن ينتقـم اللـهَ لـكَ منهم.

فقلتُ: ما فعلَ رسول الله؟

فقالتْ: هذه أمك تسمع!

فقلتُ: لا بأس، لا عليكِ منها.

فقالت: هو بخير، سالم، صالح.

فقلتُ: أين هو؟

فقالت: في بيت الأرقم بن أبي الأرقم.

فقلـتُ: واللـهِ لا أذوق طعامـاً ولا أشـربُ شـراباً حتـى أرى رسـول اللـه!

فانتظرنـا حتـى إذا هـدأتْ الحركـة، وسـكن النـاس، خرجتـا بـي أتكـئ عليهمـا من شـدة مـا أصابني، حتـى دخلتُ علـى النبي ﷺ، فجعلـتُ أُقبّلـه، فـرقَّ لحالـي، فقلـتُ لـه: بأبـي أنـتَ وأمـي يـا رسـول اللـه، ليـس بـي بـأس إلا مـا نـال الفاسـق مـن وجهي، وهـذه أمـي بَـرَّةٌ بولدهـا، وأنـتَ مبـارك، فـادعُ لهـا، وادعهـا إلى اللـه، عسـى اللـه أن ينقذها بـك من النـار. فدعا لها النبـيّ ﷺ، ثم دعاهـا إلـى اللـه. فأسـلمتْ... فنسـيتُ من الفـرح بإسـلامها كل الـذي أصابني.

- هـل يسـمح لـي خليفـة رسـول اللـه أن أسـأله عـن أمريـن استوقفاني فـي هـذه القصـة؟
- تفضَّلْ يا بُني.
- لمـاذا أقسـم قومـك على قتـل عتبة بـن ربيعـة إذا أنت متَّ، فهـل كانوا علـى دينك؟

لا لـم يكونـوا علـى دينـي، وأغلبهـم كان علـى ديـن قريـش وعتبـة بـن ربيعة، ولكنهـا العصبية القبليـة، فالعربُ لـم تكن تترك ثأرهـا، ومـن ترك ثأره فـي عرفهم نزل مـن أعين النـاس، واتهموه فـي شـجاعته ومروءته.

- حسـناً فهمـتُ، الأمـر الثانـي: لمـاذا أنكـرتْ أم جميـل بن الخطـاب معرفتهـا بـكَ وبالنبـي ﷺ، وهـل كانت تخشـى على نفسـها؟
- لا واللـهِ مـا كانـت تخشـى علـى نفسـها بقـدر مـا كانـت تخشـى علـى النبـي ﷺ ودعوتـه، ولـو كانت تخشـى على نفسـها ما طلبـتْ من أمـي أن تأتي إلـي، ولكننـا تربينا على قضـاء حوائجنـا بالسـر والكتمان، وقـد كانـت فاطمة بنت الخطـاب امـرأة عاقلـة حكيمة، أمـا رأيتَ أنها حين سـألتها عـن النبـي ﷺ، قالـتْ: هـذه أمـك تسـمع! لقـد خشـيتْ علـى الإسـلام حتـى مـن أمـي، ومـا تكلمـتْ إلا حيـن أخبرتهـا أنـه لا بـأس عليهـا من أمـي. المؤمـن كيِّـسٌ فَطِنٌ يـا بُنـي، يعـرف من أيـن تُـؤكل الكتف، ومـاذا يجـب عليه أن يقـول، والأهـم أمـام من يقولـه. فهذا الدين ليـس نظرية

فقـط، وإنمـا سـلوك وتطبيـق ومنهـج حيـاة، وربمـا أضـرَّ المسـلم الدين بحماسـته فلم يـراع المواقف، ولـم يحسـب العواقـب، وقـد كانـت فاطمـة بنـت الخطاب أعقـل من أن تقـع فـي فـخ التهور.

– الشـيءُ بالشـيءِ يُذكـر يـا خليفـة رسـول اللـه، فحدثني عن شـيءٍ سـمعته مـن علـي بـن أبـي طالب أنه سـأل مـن حولـه: من أشـجع مؤمـن آل فرعـون أم أبـو بكـر؟ فسـكتوا، فقـال: واللـهِ لسـاعة مـن أبي بكر خيـرٌ من مـلء الأرض من مؤمـن آل فرعون، ذاك رجـلٌ يكتـم إيمانـه، وأبـو بكـر يعلـنُ إيمانه!

– رحـم اللـهُ عليـاً، ذاك الرجلُ آمـنَ وصدقَ وجاهـدَ وغلبَ، أحببنـاه في اللـه، وأحبنا فـي اللهِ، ومـا قال هذا إلا لحُسـن ظنـه بي.

– فما قصة قوله هذا؟

– بينمـا النبـيُّ ﷺ يصلـي فـي حِجر إسـماعيل، إذ أقبـلَ عقبة بـن أبي معيـط فوضع ثوبـه في عنقـه، وخنقه خنقاً شـديداً، فقمـتُ إليـه، فأخـذتُ بمنكبيـه ودفعتـه عـن النبـي ﷺ وقلـتُ: «أتقتلـون رجـلاً أن يقـول ربـي الله»؟!

– فما فعلتْ قريش حينها؟

– التهـوا عن النبـي ﷺ، وأقبلوا علـيَّ يضربوننـي، وواللهِ لقد سـرَّني أن يتركـوه ويضربوني جعلنـي الله فداءه.

– واللـهِ لقـد صـدق علي بن أبـي طالب لأنتَ خيـر من مؤمن آل فرعون.

- غفر اللهُ لكَ يا بُني، ما أراك إلا تحسنُ الظنَّ بي.
- فإن لم تكن أهلاً لحُسنِ الظّنّ، فمن عساه يكون؟
- كُفَّ عن مديحي فأنا أعلمُ بنفسي.
- يصعبُ على المرءِ أن يلجم قلبه يا خليفة رسول الله، وإن قلبي هو الذي يتحدثُ لا لساني، ولكن كما تُحبُّ.

سمعتُ يا خليفة رسول الله أنَّ عمر بن الخطاب كان كلما رأى بلال بن رباح قال: بلال سيدنا وأعتقه سيدنا! يعنيك أنتَ، فما قصة عتق بلال؟

- كان المسلمون في مكة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

الأول: هم الذين من أشراف قريش وأعرقهم نسباً كأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة وهؤلاء لم يكن يجرؤ أحد على أن يقربهم لمكانتهم في قومهم.

الثاني: ضعفاء المسلمين الذين كانوا أحراراً ولكن لم يكن لهم عائلة قوية تحميهم وتمنعهم، كآل ياسر. فنالتْ منهم قريشاً أذىً وإذلالاً.

الثالث: العبيد الذين أسلموا رغماً عن أسيادهم، وهؤلاء كانوا في عرف العرب بضاعة تُباع وتُشترى، وليس للعبد دين غير دين سيده، ولو قام سيد إلى عبده فذبحه ما راجعه في هذا أحد، فلم يكن العبد في الجاهلية إنساناً بقدر ما كان متاعاً، وقد كان بلال بن رباح أحد هؤلاء. فلما أسلم بلال غضبَ سيده أمية بن خلف غضباً شديداً، وأقسم أن يعذبه

حتـى يمـوت أو يرجـع عن دينـه! فـكان أمية يخـرج إلـى رمضاء مكـة إذا حَمِيـت الظهيرة، فيطرحـه على ظهره، ثم يأمـر بالصخرة العظيمـة فتوضـع علـى صـدره، ثـم يقـول: لا تـزال هكـذا حتـى تمـوت أو تكفـر بمحمـد، وتعبـد الـلات والعزى!

فيقول: أَحَدٌ، أَحَد.

وكان ورقـة بـن نوفـل يمـرُّ عليـه وهـو يُعـذبُ بذلـك فيقول: واللـهِ أحـدٌ أحـدٌ يـا بـلال، ثـم يلتفتُ إلـى أميـة ومن معـه فيقول لهـم: واللـهِ لئـن قتلتمـوه على هـذا لأتّخذنَّـه حنانـاً، أي لأجعلنَّ قبـره موضـع حنـان فـأزوره دومـاً مترحمـاً عليه.

وكنـتُ أنا أمـرُّ ببلالٍ وهـو يُعـذّبُ فيعتصر قلبي ألمـاً من هول مـا أراه، حتـى قلـتُ يومـاً لأمية بـن خلـف: ألا تتقي اللـه في هذا المسـكين، حتى متى؟

فقال: أنتَ أفسدته فأنقِذه مما ترى.

فقلـتُ: أفعـلُ، عنـدي غـلام أسـود، أجلـدُ منـه وأقـوى، وهو علـى دينـك، أبادلـكَ بـه بلالاً.

فقال: قبلتُ.

فأخذتُ بلالاً منه، وقلتُ له أنتَ حرٌّ لوجه الله!

- فهل كان بلال بن رباح هو الوحيد الذي أعتقته؟
- أعتقتُ بفضلِ الله سبعةً كانوا يُعذَّبون في دينهم.
- فمن هم؟
- بـلال، وعامـر بـن فهيـرة، وأم عُبيـس، وزِنيـرَّة، والنهديـة وابنتهـا، وجاريـة ابـن عمـرو بـن مؤمـل.

- فهل من قصة تُروى في عتق هؤلاء؟
- بعضهم كان مجرَّد صفقة بيع وشراء، ثم يعقبه مَن عُتِق لوجه الله، وبعضهم قد كان فيهم قصة.
- فهل يتكرم خليفة رسول الله بإخباري بها؟
- لكَ هذا يا بُني، فأما زِنِّيرة الرومية فكانت أمةً لعمر بن الخطاب، أسلمتْ قبله، فكان يضربها حتى ذهبَ بصرها، فقالت قريش: ما أذهبَ بصرها إلا اللاتَ والعزى.

فقالتْ وهي لا تبصرُ: واللهِ ما هو كذلك، وما تدري اللات والعزى من يعبدها، وربي قادر على أن يردَّ عليَّ بصري.

فردَّ اللهُ عليها بصرها صبيحة تلك الليلة، فقالتْ قريش: هذا من سحر محمد.

وكانت قريش تقول: لو كان هذا الدين خيراً ما سبقتنا إليه زِنِّيرة ، فأنزل الله تعالى قوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾

فلما سمعتُ بخبرها اشتريتها واعتقتها.

وأما النهدية وابنتها، فقد كانتا لامرأةٍ من عبد الدار، فمررتُ بهما وقد بعثتهما سيدتهما إلى طحينٍ لها تطحنانه، وهي تقول: واللهِ لا أعتقكما ابداً!

فقلتُ لها: تحللي من يمينك.

فقالت: قد تحللتُ، وأنتَ أفسدتهما فأعتِقهما.

فقلتُ لها: بكَمْ؟

فقالت: بكذا وكذا درهم.

فقلتُ: قد أخذتهما وهما حرتان، وقلتُ لهما: أَرْجِعا إليها طحينها .

فقالتا: حتى نفرغ منه ونرده إليها.

فقلتُ: ذلك لكما إن شئتما.

وأما جارية ابن عمرو بن مؤمل، فكانت مسلمة، وكان حَيُّ بني مؤمن من عَدي، وكان عمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام وهو يومئذ على الشرك، فيضربها حتى إذا ملَّ منها قال: أعتذرُ إليك، إني لم أترككِ إلا مللاً.

فتدعو عليه...

فلما سمعتُ بخبرها، اشتريتها من سيدها وأعتقتها.

- للهِ أنتَ كم جاهدتَ بنفسك ومالك في سبيل الله.
- يا بُني من علم أنه للهِ هو، هان عليه في سبيله كل شيء!
- أتدري يا خليفة رسول الله أني أتحرقُ شوقاً أن نصل في حديثنا إلى يوم الهجرة، ولكن قبلها أتأذن لي أن أسألك عن موقفين حصلا معكَ قبل الهجرة الشريفة؟
- وما هما يا بُني؟
- أريدُ أن تتكرم عليَّ وتحدثني عن رهانك مع أُبي بن خلف، وعن هجرتك التي لم تكتمل إلى الحبشة.
- لكَ هذا فاسمعْ.
- كلي آذان صاغية يا خليفة رسول الله، فتفضَّل.

- فأما رهاني مع أُبي بن خلف فكان ذلكَ قبل الهجرة كما ذكرتَ، ولم يكن الرِّهان قد حُرِّمَ بعد في دين الإسلام، والقصة هي أن الروم وفارس اقتتلتا، فهزمتْ فارسُ الروم، فبلغنا ذلك في مكة، فشقَّ ذلكَ علينا لأن النبي ﷺ كره أن يظهر المجوس عبدة النار على أهل الكتاب من الروم، بينما فرح مشركو قريش بنصر فارس وشمتوا، وكانوا يقولون لنا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب. ونحن أميُّون، وقد ظهرَ إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنَّ عليكم. كما ظهرتْ فارس على الروم.

فأنزل الله تعالى قوله ﴿ألم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾.

فخرجتُ إلى الكفار فقلتُ: أَفَرِحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا، ولا يقَرَّنَّ الله أعينكم، واللهِ ليظهرَنَّ الروم على فارس، أخبرنا نبينا بذلك.

فقام إليَّ أُبي بن خلف الجمعي فقال: كذبتَ يا أبا فصِيلْ.

فقلتُ: أنتَ أكذبُ يا عدو الله!

فقال: أراهنك على عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس دفعتها إليكَ، وإن ظهرت فارس على الروم دفعتها إليَّ على أن تكون مدة الرهان ثلاث سنوات.

- وما هي القلائص يا خليفة رسول الله؟
- القلوص هي الفتيَّة من الإبل.
- حسناً فهمتُ، فماذا حدث بعد ذلك؟
- جئتُ إلى النبي ﷺ فأخبرته بالذي كان بيننا من رهان، فقال لي: ما هكذا ذكرتُ لكم، وإنما بضع سنين فهي من الثلاث إلى التسع فزايده في المُدة وزِدْ عليه في الرهان.

فخرجتُ فلقيتُ أُبيّاً، فقال لي: لعلك ندمتَ؟

فقلتُ: لا، ولكن تعال أزيدك في الرِّهان وفي المدة، فاجعلها مئة قلوص إلى تسع سنين.

فقال: قد قبلتُ.

فلما خشيَ أُبيٌّ بن خلف أن أخرج من مكة مهاجراً إلى المدينة لما تناهى إلى مسامعه أن المسلمين قد بدأوا بالهجرة إليها، جاءني وقال لي: إني أخافُ أن تخرجَ من مكة، فينقضي أجل الرهان ولمَّا تدفع لي فأقِمْ لي ضامناً كفيلاً.

- فما الذي حدث بعد ذلك؟
- خرج أُبي بن خلف إلى أُحد، ثم رجع إلى مكة وماتَ فيها من أثر جراحه التي جرحه إياها النبيُّ ﷺ حين بارزه يوم أُحد.

ثم هزمتْ الرومُ أهلَ فارس يوم الحديبية، وكان ذلك بعد سبع سنوات من رهاننا، فقبضَ ابني عبد الله الرهان من ورثة أُبي بن خلف، وجاءني بها، فأخذتها إلى النبي ﷺ، فقال لي: تصدَّقْ بها.

- أما حدثتكَ نفسك ولو للحظة أنه من الممكن أن تخسر الرهان؟
- لا واللهِ ما شككتُ ولا ارتبتُ في وعد الله ووعد رسوله، وكنتُ على يقين بأني سأفوز بالرهان، وما كانت تعنيني النوق موضوع الرهان، وإنما كنتُ أُراهن على صدق الله ورسوله.
- للهِ دَرّكَ يا أبا بكر.
- فهل انتهينا من هذه القصة؟
- أجل انتهينا، فهل تتكرم وتحدثني الآن عن هجرتك التي لم تكتمل إلى الحبشة؟
- لك هذا يا بُني.
- كلي آذان صاغية يا خليفة رسول الله.
- لما زادتْ قريش في أذاها لنا، خرجتُ مهاجراً إلى الحبشة أريدُ أن ألحق بجعفر بن أبي طالب ومن معه هناك، حتى إذا بلغتُ برك الغماد وهي منطقة تبعدُ مسيرة خمس ليالٍ عن مكة، لقيني هناك ربيعة ابن الدَّغنة، واسمه ربيعة بن فهيم من قبيلة القارة والدَّغنة أمه وكان يُنسبُ إليها لشهرتها، فقال لي: أين تريدُ يا أبا بكر؟

فقلتُ: أخرجني قومي، فأريدُ أن أسيح في الأرض وأعبد ربي.

فقال: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرجُ ولا يُخرج، إنك تُكسبُ المعدومَ، وتصلُ الرَّحم، وتحملُ الكلَّ، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فأنا لكَ جارٌ، ارجعْ فاعبدْ ربَّك في بلدكَ.

فرجعتُ ورجعَ معي ابن الدَّغنة، فلما صرنا في مكة، طافَ بالبيت، ثم أقبل على سادة قريش في دار الندوة وقال لهم: إنَّ أبا بكر لا يَخرجُ ولا يُخرجُ، أتُخرجون رجلاً يُكسبُ المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكلَّ، ويُقري الضيف، ويعين على نوائب الحق.

فسكتوا برهةً، لما علموا من صدق وصفه لي، ثم قالوا: مُرْ أبا بكرٍ فليعبدْ ربَّه في داره فليصلِّ فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يُؤذينا، فإننا نكره أن يفتن نساءنا وأبناءنا عن دينهم فيتبعوا دينه.

فقال لهم: لكم هذا.

فلبثُ زماناً على هذا، ثم بنيتُ مسجداً في فناء داري، فكنتُ أصلي فيه، وأقرأ القرآن، فكانت قريش تمرُّ بي فتقف تسمع لصلاتي وقراءتي، فساء ذلك سادة قريش، فجاؤوا إلى ابن الدَّغنة وقالوا له: إنَّا كنَّا أجرنا أبا بكرٍ بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فجاوز ذلك، فبنى مسجداً في فناء داره، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه، فإن أحبَّ أن يقتصر على أن يعبد ربَّه في داره فعلَ، وإن أبى إلا أن يُعلن، فسله أن يردَّ إليكَ ذمتكَ، فإنا نكره أن نردَّ جوارك فيه ولكننا لا نرضى أن يجهر بصلاته وقراءته.

فجاءني ابن الدَّغنة، فقال: يا أبا بكر، قد علمتَ الذي

أجرتُـكَ عليـه، فإمـا أن تقتصر علـى أن تعبد ربك فـي بيتك، وإما أن تُرجـعْ إلـيَّ ذمتـي، فإنـي لا أحبُّ أن تسـمعَ العربُ أنـه أُصيب رجـلٌ وهـو فـي جـواري، وأنا فـي غنى عـن قتـال قريش.

فقلـتُ لـه: فإنـي أردُّ إليـك جـوارَكَ، وأرضى بجـوار اللـهِ عزَّ وجل.

- لفتني يا خليفة رسول الله نُبل ابن الدَّغنة.
- أجـل واللـهِ، لقـد كان رجـلاً نبيـلاً، وهكـذا كانـت أخلاق العـرب فـي الجاهليـة، فعلى شـركهم، كانت فيهـم أخلاقٌ حميـدة، وهـذه أقـرَّ لهـم بهـا النبـيُّ ﷺ يـوم قـال: «إنمـا بُعثـتُ لأتمـم مـكارم الأخلاق». فقـد أقرَّ أن للقـوم أخلاقاً حميـدة، ولكنهـا أخلاق تعجـبُ أحياناً من نبلها ثـم يقابلها عـادات تعجب مـن خِسَّـتها ووضاعتها، وما بعـث الله نبيَّه ﷺ إلا بديـن التوحيد، ثـم ليُبقي على هذه العـادات والقيم النبيلـة، ويهـدم العـادات السـيئة، ويقيـم مكانهـا عـادات الإسـلام وأخلاقه.
- صدقتَ واللهِ.
- فهلْ اكتفيتَ بما حدثتكَ به مما طلبتَ؟
- أمـا عمـا طلبـتُ فقـد اكتفيـتُ، وأمـا منـك فـلا، فمـا زال للحديـث بقيـة!

- والآن يا خليفة رسول الله أريدُ أن أسألكَ عن شيءٍ غبطك عليه الناس منذ أن حدثَ لكَ حتى قيام السَّاعة!
- وما هو يا بُني؟
- هجرتك مع النبي ﷺ من مكة إلى المدينة.
- واللهِ لهي أجمل أيام عمري، فعلى ما فيها من مشقة السفر، وخوف أن نُدرك، والقلق على النبي ﷺ وعلى دين الإسلام، إلا أن كل هذا لا شيء مقارنة أن تمشي معه في رحلة غيَّرتْ وجه هذا الكوكب إلى الأبد، ونقلتْ الإسلام من مشقة الدعوة إلى سِعة الدولة، وأن تختلي به في الغار وحدكما ثلاثة أيام لهو أجمل ما في العمر، ويستحق أن أُغبط عليه.
- فحدثني عنها إذاً، فكلي شوق أن أسمع القصة من صاحبها.
- لكَ هذا يا بُني، فأعرني سمعكَ.
- أعرتُكَ قلبي قبل سمعي.
- كنتُ كثيراً ما أستأذنُ النبيَّ ﷺ في الهجرة، فيقول لي: لا تعجل، لعلَّ الله أن يجعلَ لكَ صاحباً. فكنتُ أمتثلُ أمره وأنتظر، وما كنتُ أعلمُ أنه يُخبئني لنفسه!

وكان من عادة النبي ﷺ أن يأتيني في بيتي إما صباحاً، أو مساءً، فجاءني يوماً عند منتصف الظهيرة، فقلتُ: ما جاء رسول الله ﷺ في هذه السَّاعة إلا لأمر قد حدث. فلما دخلَ أفسحتُ له ليجلس إلى جواري على سريري وليس عندي يومها إلا أسماء وعائشة.

فقال لي: أَخْرِجْ عني من عندك.

فقلتُ: يا رسول الله، إنما هما ابنتايَ، وما ذاكَ فداكَ أبي وأمي؟

– إنه قد أُذنَ لي في الخروج والهجرة.

– الصُّحبة يا رسول الله.

– الصُّحبة يا أبا بكر.

وكان قلبي يُحدّثني أنه سيصحبني معه، فكنتُ قد أعددتُ ناقتين للسفر، فأخبرته بالأمر، وقلتُ له: خُذْ إحدى الراحلتين.

فقال لي: بالثمن يا أبا بكر.

فقلتُ له: كما تشاء يا رسول الله.

– فلماذا أصرَّ على أن يدفع ثمن الناقة لك، مع أنه لم يكن بينكما حساب. وهو القائل: إن أمنَّ الناس عليَّ بصحبته وماله أبو بكر؟

– هذا لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله، ولهذا لم أُلحَّ عليه فقد فهمتُ مغزاه.

– حسناً، فما الذي حدث بعدها؟

– رسمنا خطة الهجرة، وهي أن نخرج مشياً على الأقدام إلى غار ثور، ونمكث هناك ثلاثة أيام، فقد علمنا أن

قريشـاً لا بُـدَّ أن تخـرج فـي طلبنـا، فـإذا اختبأنـا هنـاك، ما تلبـث قريـش أن تعتقـد أننـا سـبقناهم فتكـفَّ عـن طلبنـا.
وكنـا قـد اسـتأجرنا رجـلاً عالمـاً بالصحـراء داهية، اسـمه عبـد الله بـن أُريقط ليكـون دليلنا إلـى المدينـة، ويختار لنا طريقـاً لا يسـلكه النـاس عـادة، واتفقنـا أن يأتينا عنـد الغار مـع خادمـي عامر بـن فهيـرة والنوق التـي سـنركب عليها، فـإذا أتـمَّ اللـهُ لنـا هـذا، انطلقنـا برعاية اللـهِ إلـى المدينة.

وأوصـى النبـيُّ ﷺ عليَّ بن أبـي طالب، أن يبيتَ في فراشـه تلك الليلـة حتـى تطمئـن قريـشَ أنه فـي بيتـه، وأوصـاه أن يـرُدَّ الأمانات إلـى أصحابهـا، فلـم يكـن عنـد أحد مـن قريش شـيء يخشـى عليه إلا وضعـه عنـد النبـي ﷺ لمـا يعلمون مـن صدقـه وأمانته.

وخرجنـا ولا يعلـم بمكاننا مـن الناس إلا علي بـن أبي طالـب، وأهـل بيتـي. وعبـد اللـه بـن أُريقـط، وخادمـي عامـر بـن فهيرة، ولمَّـا كنـا على مشـارف مكة، وقـف النبيُّ ﷺ مودعـاً لها والحزن يعتصـرُ قلبـه وقال: إنكِ لأحـبُّ أرضِ اللـهِ إليَّ، ولـولا أنّ أهلكِ أخرجونـي منكِ مـا خرجتُ.

ونحـن فـي الطريـق إلى غار ثـور كنتُ أسـيرُ مـرةً أمامـه ومرةً وراءه، فقـال لـي: ما هـذا يا أبـا بكر؟
فقلـتُ: يـا رسـول اللـه أذكـرُ الرَّصـد فأكـون أمامـك، وأذكـرُ الطّلـبَ فأكـون وراءك، فإنـي أخشـى عليـك.

فلمـا وصلنا إلـى غار ثـور دخلنا فاختبأنـا، وفقدتنـا قريشٌ في مكـة، وجـاء أبـو جهـل إلـى بيتـي يسـأل ابنتي أسـماء عنـي وقال لهـا: أيـن أبوكِ؟

فقالت: ما أدري أين أبي.

فرفـع يـده فلطمهـا على وجههـا لطمة قوية سـقط منهـا القرط الـذي تضعه فـي أذنها!

- لكم الله يا آل أبي بكر كم تحملتم في سبيل اللهِ.
- بـل الحمـد للـهِ والمنـة أن اختارنـا مـن دون النـاس لنكون جنـوداً فـي هـذه الهجـرة المباركة
- فما الذي حدث بعد ذلك؟
- تبعـتْ قريـش آثارنـا حتى وصلـوا إلـى جبل ثـور، فاختلط عليهـم الأمـر، فصعـدوا الجبل، ومـروا بالغار، فـرأوا على بابـه نسـيج العنكبـوت، فقالـوا: لو دخـلَ هنا أحـد لم يكن نسـيج العنكبوت علـى بابه.

وأنـا في الداخل أخشـى علـى النبـي ﷺ، وقلتُ له: يا رسـول اللـه لـو أن أحدهم نظـر تحت قدميـه لأبصرنا.

فقال لي: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

فأنـزل اللـه تعالـى عليـه قرآنـاً ﴿إِلَّا تَنصُـرُوهُ فَقَـدْ نَصَـرَهُ اللَّهُ، إِذْ أَخْرَجَـهُ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا ثَانِـيَ اثْنَيْـنِ إِذْ هُمَـا فِـي الْغَـارِ إِذْ يَقُـولُ لِصَاحِبِـهِ لَا تَحْـزَنْ إِنَّ اللَّـهَ مَعَنَـا فَأَنـزَلَ اللَّـهُ سَـكِينَتَهُ عَلَيْـهِ وَأَيَّـدَهُ بِجُنُـودٍ لَّـمْ تَرَوْهَـا وَجَعَلَ كَلِمَـةَ الَّذِينَ كَفَـرُوا السُّـفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِـيَ الْعُلْيَـا وَاللَّـهُ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ﴾.

- يـا لِحظّـك يـا أبـا بكـر، يطمئنـك بصوتـه العـذب، ويربّتُ علـى قلبـك بأجمـل مـا قيـل فـي الطمأنينـة فـي تاريـخ البشـرية، يـا أبـا بكـر مـا ظنـك باثنيـن اللـه ثالثهمـا. ويـا لحظـك إذ ينـزلُ فيك قـرآن يُتلـى إلى يـوم القيامة ويشـهدُ أنـكَ كنـتَ صاحبـه.
- هـذا فضـل اللـهِ يؤتيـه مـن يشـاء، والحمـد للهِ علـى فضله الـذي آتانا.
- فهـل كنتـم تعلمون شـيئاً من أخبـار قريش وأنتما فـي الغار قبـل أن يصـل إليكمـا بقيـة فريق الهجـرة المباركـة لإكمال الرحلة؟
- كنا نعرف كل أخبارهم.
- وكيف هذا؟
- أخبرتُـكَ أننـا أعددنـا للأمـر خطـة محكمـة وكان مـن بنود الخطـة أن يبقـى ابنـي عبـد اللـهِ فـي مكـة نهـاراً يسـتطلعُ أخبـار قريـش، ويعـرف ما هـم فاعلون مـن أمرهـم، وماذا يقولـون ويُدبّـرون، فـإذا كان الليـل انسـلَّ إلينـا فـي الغـار وأخبرنـا بخبـر القـوم، وكان يبقـى سـاهراً عنـد بـاب الغار يحرسـنا فـإذا كان الصبـاح عاد إلى مكـة. فرآه القـوم هناك فـي النهـار فلـم يشـكوا للحظـة أنه بـات فـي بيته.
- هـي واللـهِ خطـة محكمـة، ولكـن ألـم يخطـر ببالكمـا أن قريشـاً قـد تتبـعُ الأثـر إلـى غـار ثـور مـرةً أخـرى؟
- على يقيننا أن قريشاً ما كانت تعود، إلا أننا احتطنا للأمر.

- وكيف هذا؟
- عهدتُ إلى خادمي عامر بن فهيرة أن يرعى أغنامي مع رعيان قريش حتى يبدو الأمر طبيعياً، ولا يلفت الأنظار إلى شيء، حتى إذا أمسى جاء بالأغنام إلى غار ثور، فحلبَ وسقانا، ثم يرجع بالقطيع فيمشي به على آثار ابني عبد الله وهكذا تضيع أثر خطوته حيث تمحوها الأغنام!
- يا للدهاء يا أبا بكر!

يا بُنيَّ إنَّ النبيَّ ﷺ علمنا أن نأخذ بالأسباب ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ثم نتوكل على اللهِ وحده لا على الأسباب التي أخذنا بها، ألم ترَ أنه قد استأجرَ عبد الله بن أُريقط ليكون لنا دليلاً، ولم يقل أنا نبي ولن يتركني الله أضيع في الصحراء وسأصل إلى المدينة على أية حال، واللهِ ما كان الله ليضيعه، وكان سيصل إلى المدينة نهاية المطاف، ولكنه أراد أن يُعلِّمَ أمّته ثقافة الأخذ بالأسباب!
- ﷺ كم كان يحرص على تعليم هذه الأمة حتى في أشدّ لحظات حياته خطراً ومشقة.
- أي واللهِ لقد كان كذلك.
- عندي سؤال يا خليفة رسول الله.
- تفضَّل يا بُني.

- أخبرتني أن أباك قد تأخر إسلامه حتى عام الفتح، فهل كان له من خبر يوم الهجرة؟

- عندما علم أبي بخبر هجرتنا، جاء إلى بيتي يتفقد أولادي، وكان قد عميَ وفقد بصره، فقال لأهلي: واللهِ إني لأراه قد فجعكم في نفسه وماله. وبالفعل كنتُ قد أخذتُ كل ما تبقى من مالي معي خشية أن يلزمنا في الطريق. ولكن ابنتي أسماء كانت ذكية عاقلة حصيفة، فجاءت بصندوق في أسفله حصى وعلى وجهه بعض الحُلي لها ولأختها ولأمها، ووضعت فوقها قطعة قماش، وقالت له: لا يا جدي، لقد ترك ماله، ضع يدك. فوضع أبي يده، وتحسس ما في الصندوق، فلم يشك أن مالي كله فيه.

- عائلة من الدهاة يا أبا بكر، ذرية بعضها من بعض، فسبحان من علمكم.

- سبحانه وتعالى.

- فما الذي حدث بعد ذلك؟

- بعد أن أمضينا في غار ثور ثلاثة أيام، وهدأتْ الحركة، وخفَّ الطلب، ويئست قريش من إيجادنا، حتى أنها من شدة يئسها جعلَتْ جائزة مئة ناقة لمن يأتي بنا إليها أحياءً أو أمواتاً، جاءنا دليلنا الحاذق عبد الله بن أُريقط، وخادمنا الأمين عامر بن فهيرة، وانطلقنا في مسيرنا تحُفُّنا رحمة الله، وتكلؤنا عنايته حتى وصلنا إلى المدينة.

- قبل أن أسألك عن شهر الوصول إلى المدينة، هل تأذن لي أن أسألك عن مروركم على أم معبد الخزاعية، وعلى ما كان بينكم وبين سُراقة بن مالك؟

- سَلْ ما شئتَ يا بُني!

- فإني قد سألتُ، فحدِّثني يرحمك الله، فالحكاية بصوتك نكهة أخرى، وطعم خاص.

- في طريقنا إلى المدينة مررنا على خيمة أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة جوادة عفيفة، تُحسن إلى الضيف، وتعين المسافر، فسألناها عن لحمٍ وتمرٍ نشتريه منها، فلم نجد عندها من ذلك الشيء، فقد كانوا يومها في فاقة وجدب، وكان زوجها قد خرج بأغنامه إلى البادية ليرعاها. فنظر النبي ﷺ إلى شاةٍ واقفة بجانب الخيمة، ثم قال لها: ما هذه الشاة يا أم معبد؟

فقالتْ: شاة لا تستطيع المشي، وقد تركها أبو معبد هنا ولم يأخذها مع الغنم للرعي.

فقال لها: أتأذنين أن أحلبها؟

فقالت: بأبي أنت وأمي إن رأيتَ بها حليباً فاحلبها.

فدعا بها النبيُّ ﷺ، فقربناها له، فسمى الله، ثم مسح على ضرعها بيده الشريفة، وحلبها حتى ملأ إناءً كبيراً وسط ذهول أم معبد لما رأتْ كيف تحولت هذه الشاة التي جفَّ ضرعها بالأمس إلى شاة حلوب بين يديه. ثم قام فسقى أم معبد حتى شبعتْ، ثم سقانا حتى شبعنا نحن أيضاً، ثم كان هو آخر القوم شُرباً.

ثـم قام إلى الشـاة مـرةً أخـرى فملأ الإناء مـن حليبهـا، وناوله لأم معبـد ليشـربه زوجهـا وأهلهـا بعـد عودتهـم مـن الرَّعـي ثـم تابعنـا طريقنا.

- شاة جدباء صارتْ شاةً حلوباً يا لبركة يد رسول الله!
- كان واللـهِ مبـاركاً قبـل نبوّتـه فكيـف بعدهـا، كانـت أغنـام حليمـة السـعدية أهـزل أغنـام بني سـعد، فلما جـاءت إلى مكـة وأخذتـه لترضعـه فـي ديارها حلَّـتْ البركة هنـاك يوم حـلَّ، فصـارتْ أغنامهـا أسـمّنها لحمـاً، وأكثرهـا حليبـاً، حتـى صار النـاس يقولون: انظـروا أين ترعى أغنـام حليمة فارعـوا أغنامكم!
- واللهِ إنه لبركة بأبي هو وأمي.

- والآن بعـد أن انتهينـا من قصـة أم معبد الخزاعيـة، فما قصة سـراقة بن مالك يـا خليفة رسـول الله؟

أخبرتـك أن قريشـاً جعلـت جائـزة مئة ناقـة لمن يأتي بنـا إليها أحيـاءً أو أمواتـاً، وكان سـراقة بـن مالـك قصاصـاً بارعـاً للأثـر، وكان جالسـاً فـي مجلـس قريـش حين جـاء رجـل فقال: لقـد مرَّ جماعـة فـي الصحـراء ومـا أظنهـم إلا محمـدًا وأصحابه.

فأشـار إليه سُـراقة أن أُسـكتْ، ثم قـال: إنهم بنو فـلان يتبعون ضالـة لهم.

وهو بذلك يُمَنِّي نفسه بالجائزة أن يستأثر بها وحده، فقد وقع في قلبه أننا نحن الذين رآنا الرجل، ثم قام إلى بيته فجهَّز فرسه، وأخذ سلاحه، وتبع أثرنا، فلما رآنا من بعيد ورأيناه وهو يطلبنا، إذ سقط عن فرسه ونحن نشد المسير كي لا يتبعنا، فقام وامتطى فرسه فوقع مرة ثانية، فعرف أن النبي ﷺ محروس بعين الله وأنه لن يصل إليه فنادانا قائلاً: أنا سُراقة بن مالك انتظروني أكلمكم فواللهِ لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه.

فقال لي النبيُّ ﷺ: يا أبا بكر قل له كيف أنتَ يا سُراقة بن مالك إذا أخفيتَ أمرنا فلبستَ سواري كسرى؟

فقال: كسرى بن هرمز؟!

فقلتُ: نعم كسرى بن هرمز.

فقال: قبلتُ، على أن تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينكم.

فقال النبي ﷺ: يا أبا بكر، اُكتب له كتاباً.

فكتبتُ له رقعة هذا الوعد، وأعطيته إياه ومضينا...

وقد تحقق وعد رسول الله ﷺ يا أبا بكر لسُراقة، ففي خلافة عمر بن الخطاب فُتحت بلاد فارس، وجيء إلى عمر بكنوز كسرى، وجاء سُراقة بن مالك بالرقعة إلى عمر بن الخطاب ودفعها إليه. فألبسه عمر سواري كسرى وملابسه، ثم أخذها منه وردها إلى الغنائم لتقسم بين المسلمين، فالوعد كان أن يلبسها لا أن يستأثر بها لنفسه.

- ولكن عندي سؤال يا خليفة رسول الله.
- وما هو يا بُني؟
- هل كان رسول الله ﷺ يعلم الغيب؟
- لا يعلمُ الغيبَ إلا الله يا بُني، ولكنَّ الله تعالى قد أطلع نبيَّه على شيءٍ منه. فكان يعلمُ ما أطلعه الله عليه فقط، أما خبرَ النبيُّ ﷺ أن من علامات الساعة أن الحُفاة، رعاة الشاة سيتطاولون في البنيان وهذا من أمور الغيب، وها هو الأمر كما ترى قد تحقق، وما ينطقُ نبينا عن هوى، إنما هو وحي يوحى.
- حسناً فهمتُ، فأخبرني عن لحظة الوصول إلى المدينة، وكيف استقبلكم الناس؟
- كان خبر انطلاقنا من مكة قد وصل إلى المدينة قبل وصولنا، وكان المسلمون ينتظروننا على أحر من الجمر، فلما وصلنا فرحوا فرحاً عظيماً، ورحبوا بنا، وجلس النبيُّ ﷺ صامتاً لم يتكلم، وكنتُ أنا واقفاً، فجاء رجال من الأنصار ممن لم يروا النبي ﷺ من قبل يُحيونني لأنهم ظنوني هو، فأمسكتُ ردائي وظللتُ النبيَّ ﷺ من الشمس، فعرفوا أنه هو.
- فلِمَ فعلتَ هذا؟
- يا بُني فعلته جبراً للخواطر، فقد وجدتُ فيها حرجاً لهم أن يحيونني فأقول لهم لستُ أنا، فلما فعلتُ هذا، عرفوا من فعلي، وفهموا أن الذي أظلله هو النبي ﷺ.

- مـا أعذبـكَ، حتـى فـي هـذا الموقـف لـم تنـسَ خواطـر النـاس.
- يـا بُنـي ما النـاس إلا خواطر وكرامات، وكسـر عظم إنسـان لا يقـل ألمـاً عن كسـر خاطره، وإن كسـر العظـم يلتئم، أما كسـر الخاطر فيبقى!
- فماذا عن نشيد طلع البدر علينا، لماذا لم تذكره لي؟
- يـا بُنـي إن نشـيد طلـع البـدر علينا لم يكـن يـوم قدومنا إلى المدينـة، وإنمـا أنشـده أهـل المدينـة للنبـي ﷺ يـوم عـاد فاتحـاً مـن غـزوة خيبر!
- سـبحان اللـه، لهـذا حرصـتُ أن أسـمع الحكايـة مـن فـم صاحبهـا. فحدثنـي يـا خليفة رسـول اللـه عن خبر سـمعته عـن مرضـكَ يـوم قدمـتَ إلـى المدينة؟
- كانـت المدينـة شـديدة الوبـاء، فأصـاب أصحـاب رسـول اللـه ﷺ منـه شـيء، ودفـعَ اللـه ذلـك عـن نبيـه، فكنـتُ أنـا وبـلال وعامـر بـن فهيـرة مرضـى فـي بيـت واحـد، فاسـتأذنتْ ابنتـي عائشـة زوجها رسـول الله ﷺ أن تأتـي لزيارتنا فـأَذِن لها، ولما دخلـتْ عليَّ قالـت لـي: كيـف تجدكَ يـا أبـتِ فقلـتُ لها شـعراً:

كل امـــرىءٍ مُصبَّـــحٌ فـــي أهلـــه
والمـوتُ أدنـى مـن شـراكِ نعلـه

فقالـت لـي: واللـهِ إنـكَ لا تـدري مـا تقـول يـا أبتِ من شـدة الحُمـى التـي نزلـت بك!

ثـم سـألت بلالاً وعامـراً فأجاباها قريبـاً مما أجبتهـا، فرجعتْ عائشـة إلـى النبـي ﷺ فأخبرته الـذي كان منـا، وقالت: يا رسـول اللـه إنهم يهـذون من شـدة الحُمى.

فقـال: اللهـم حَبِّـب إلينـا المدينـة كحبنـا مكـة أو أشـد، وصحّحهـا، وبـارك لنـا فـي صاعهـا ومُدِّهـا، وانقُـل حمَّاهـا فاجعلهـا فـي الجُحفـة.

- وما الجُحفة يا خليفة رسول الله؟

- مـكان قريـب مـن المدينـة، وقد سـمّاها النبـي ﷺ إذ كانت يومـذاك ديـار اليهود!

- فماذا عن غزوة بدر يا خليفة رسول الله؟
- كانت قريش قد صادرت أموال المسلمين في مكة، وبلغ النبيَّ ﷺ أن قافلةً لقريش يقودها أبو سفيان على مقربة من المدينة، فانتدبنا النبي ﷺ للإغارة عليها علَّه يُعوِّضُ المسلمين شيئاً مما فقدوه في مكة، فبلغ الخبرُ أبا سفيان فغيَّر سير القافلة، وأرسل رسولاً إلى قريش يطلب نجدتها، وخرجتْ قريش بجيشها، خرجنا نُريد القافلة فلم ندركها، وخرجتْ قريش تريدُ الدفاع عن القافلة ولكنها نجتْ منا دون حاجتها لنصرة قريش، أرادوا شيئاً وأردنا شيئاً ولكن الله سبحانه أراد الحرب فكانت !
- فما الذي حدث قبل المعركة، أقصد كيف كانت الأجواء في معسكر المسلمين؟
- جمعنا النبيُّ ﷺ وقال: أشيروا عليَّ أيها الناس.

فقمتُ وتحدّثتُ وأخبرته أن يمضي على بركة الله فكلنا معه وطوع أمره.

فقال مجدداً: أشيروا عليَّ أيها الناس.

فقام عمر بن الخطاب وقال نحواً مما قلتُ.

ولكنَّ النبيَّ ﷺ قال مجدداً: أشيروا عليَّ أيها الناس.

– فلماذا كان يريدُ مزيداً من المشورة بعد قولك وقول عمر؟

– كان يريدُ أن يسمع قول الأنصار لسببين:

الأول: أني وعمر من المهاجرين فكان لا يريدُ أن يُشركهم في حرب لا يخوضوها عن رغبة منهم.

الثاني: أنهم عاهدوا النبيَّ ﷺ أن يحموه ما دام في المدينة، أما الآن فنحن خارج المدينة، عند آبار بدر، وهذا موقف جديد والنُصرة والمنعة هنا لا تدخل ضمن العهد القديم الذي أعطوه للنبي ﷺ.

– حسناً فهمتُ، فما الذي حدث بعد ذلك؟

– فطِنَ سعد بن معاذ زعيم الأنصار لمقصد النبي ﷺ، وكان رجلاً ذكياً شجاعاً، فقال: كأنكَ تريدنا يا رسول الله؟

فقال له النبيُّ ﷺ: نعم

فقال له: قد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردتَ فوالذي بعثكَ بالحق لو خضتَ بنا البحر لخضناه معكَ، وما تخلَّفَ منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدواً غداً، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، ولعلَّ الله يريك منا ما تقرَّ عينك، فَسِرْ بنا

بركـة اللـه. عندهـا تهلـل وجـه النبـيِّ ﷺ، واطمأنَّ على تماسـك جيشـه، وارتفـاع الـروح المعنويـة لجنوده.

- فهل دعا النبيُّ ﷺ بشيء يوم المعركة؟

- كان النبـيُّ ﷺ أكثـر هـذه الأمـة دعـاءً ومناجـاة، ولـم يكن ليدعـو فـي الرخـاء ويتركه في الشـدة، وها نحـن الآن قاب قوسـين أو أدنـى من بدء القتال، فاسـتقبل النبـيُّ ﷺ القبلة، ثـم رفـع يديـه يدعـو فقـال: اللهـم أنجـزْ لـي مـا وعدتني، اللهـمَّ إن تُهلـك هـذه العصابة من أهل الأسـلام فلـن تُعبد فـي الأرض أبداً.

ومـا زال يدعـو حتـى سـقط رداؤه عـن منكبيه، فأخـذتُ رداءه فأعدتـه عليـه وقلتُ لـه: يا نبـيَّ اللهِ، كفاكَ مناشـدتكَ ربَّـكَ، وإنه سـينجز لكَ مـا وعدكَ. حسـبُكَ يا رسـول الله، قـد ألححتَ على ربك.

- فما خبر العريش يوم بدر يا خليفة رسول الله؟

- كان هـذا اقتراحـاً ذكياً من سـعد بـن معاذ، حيث قـال للنبي ﷺ: يـا رسـول اللـه، نبني لكَ عريشـاً من نخـل فتكون فيه، ثـم نلقـى عدوَّنـا فـإن نصرنـا اللـه عليهـم كان ذلـك ممـا أحببنـا، وإن كان غيـر ذلكَ، لحقـتَ بمن وراءنـا من قومنا، فقـد تخلَّـفَ عنـكَ أقـوام مـا نحـن بأشـد حبـاً لـكَ منهم، ولـو ظنـوا أنكَ سـتحارب مـا تخلفـوا عنـكَ، يمنعـكَ الله بهـم، ويناصحونـك ويجاهـدون معكَ.

- يا لسعد بن معاذ من رجل، ويا لهذا الاقتراح ما أذكاه!
- يـا بُنـي هـذا رجـل نذَر نفسـه للـهِ، ويكفيـه شـرفاً أن عرش الرحمـن اهتـزَّ لموته!
- فهل وافق النبيُّ ﷺ على الخطة؟
- أجل، وافق عليها.
- إذاً الخبر الذي سمعته صحيح؟
- وما سمعتَ يا بُنيَّ؟

سـمعتُ أنَّ علـيّ بـن أبي طالـب قال يومـاً للناس: من أشـجعُ الناس؟

فقالوا: أنتَ.

فقـال: أمـا إني ما بارزتُ أحـداً إلا انتصفتُ منه، ولكنَّ أشـجع النـاس أبـو بكـر، فلمـا كان يـوم بـدر جعلنـا للنبـي ﷺ عريشـاً، وقلنـا: مـن يكـون معـه لئـلا يصـل إليـه أحـد مـن المشـركين؟ فواللـهِ مـا قام أحـدٌ إلا أبو بكر شـاهراً سـيفه، مسـتعداً للدفاع عن النبي ﷺ.

- هـذا من حُسـن ظـن عليّ بنـا، ودماثـة أخلاقه، فأسـأل الله أن يكتـب لـه أجـر إسـلامه وجهـاده، فطالما كان أسـداً من أسـود الإسلام.

- فهل قال النبيُّ ﷺ لكَ شيئاً وأنتما في العريش؟
- أجـل قـال لـي: أبشِـرْ يـا أبـا بكـر قد أتـاك نصـر اللـه، هذا جبريـل آخـذٌ بعنـان فرسـه يقوده.

ثـم خرجَ مـن العريش فحـرَّض المسـلمين على القتـال وقال: والذي نفسـي بيـده لا يقاتلهم اليـوم رجلٌ، فيُقتل صابراً محتسـباً، مقبـلاً غير مدبـر إلا أدخله اللـه الجنَّة.

فقاتلنا على بركة الله ومعيته، ومنَّ علينا سبحانه بالنصر.

- فما خبر أسرى بدر يا خليفة رسول الله؟
- قتلنـا يـوم بـدر سـبعين مـن جيـش قريـش، وأسـرنا منهـم سـبعين أيضـاً، ولـم يكـن عند النبـيّ ﷺ نصٌّ في الأسـرى، ولا وحـي مـن ربـه، وكان مـن عادتـه والأمـر كذلـك أن يجمـع المسـلمين للشـورى، فجمعنا وطلبَ رأينـا، فقمتُ فقلـتُ: يـا نبيَّ اللـهِ هـؤلاء بنو العـم والعشـيرة والإخوان، وإنـي أرى أن تأخـذ منهـم الفِديـة، فيكـون ما أخذنـا منهم قـوةً لنـا، وعسـى اللـهُ أن يهديهـم فيكونـوا لنـا عضُداً.
- فماذا قال لكَ رسول الله ﷺ؟
- لـم يقـل لـي شـيئاً، وإنمـا قـال لعمـر: مـا تـرى يـا ابـن الخطـاب؟

فقـال عمـر: لا واللهِ مـا أرى الـذي رأى أبو بكـر، ولكني أرى أن تمكّننـي مـن فلان قريبي فاقتلـه، وتمكن حمزة مـن فلانٍ قريبه فيقتلـه، حتـى يعلـم النـاس أنـه ليـس فـي قلوبنـا هـوادة للكفار. هـؤلاء صناديدهـم وقادتهـم وأئمتهم.

- فماذا قال النبيُّ ﷺ لعمر؟
- أيضاً لم يقل شيئاً، وإنما قام فدخلَ خيمته.

- فما الذي حدث بعد ذلك؟
- صار بعض الناس يقولون سيأخذ النبيُّ ﷺ برأي أبي بكر، وبعضهم يقولون سيأخذ برأي عمر.
- فبرأي مَنْ أخذ؟
- خرج النبيُّ ﷺ من خيمته وقال:» إنَّ الله لَيَلِين قلوب رجالٍ فيه حتى تكون ألينَ من اللبن، وإنَّ الله ليشدد قلوب رجالٍ فيه حتى تكون أشدَّ من الحجارة. وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم حين قال فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى حين قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ومثلك يا عمر مثل نوح حين قال: «رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

مثلك يا عمر مثل موسى حين قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

ثم أخذ برأيي، ووافق على إطلاق الأسرى مقابل فدية، ثم تبين في اليوم التالي أن الحقَّ كان في رأي عمر، فقد أنزل الله تعالى قوله ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

- ما يضرك يا خليفة رسول الله، فقد اجتهدتَ برأيك،

ونصحتَ لله ورسوله، وما كان رأي العفو منكَ إلا لأنك ليّن رقيق وقد شبَّهك النبيُّ ﷺ في لينك وشفقتك بإبراهيم عليه السلام، وبعيسى عليه السلام.

- غفر الله لنا ما كان منا يا بُني.

- وماذا عن غزوة أُحُد يا خليفة رسول الله؟

- أرادت قريش أن تثأر لما أصابها في بدر، وتنتقم لتلك الهزيمة النكراء التي ألحقناها بهم، فقد قُتل في بدر قادة قريش وأسيادها، أبو جهل، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، وهؤلاء كانوا من رؤوس الشرك، ولهم من خلفهم أهل وطالِبو ثأر. فجمعوا عتادهم وجاؤوا، وكان النبيُّ ﷺ يميل إلى رأي الشيوخ أن لا يخرج لملاقاتهم وإنما يمكث في المدينة فإن جاؤوا قاتلهم، ولكن حماسة الشباب، وبعض الذين لم يشهدوا بدراً ألحّوا عليه بالخروج، فدخل بيته ولبس ثياب الحرب ثم خرج، فقالوا يا رسول الله لعلنا حملناك على غير ما تريد.

فقال: ما كان لنبي إذا لبسَ لأمة الحرب أن يخلعها!

وهكذا خرجنا إلى أُحُد لملاقاة جيش قريش.

وخشي النبيُّ ﷺ أن يلتفَّ علينا المشركون من وراء الجبل فنصبح بين فكي كماشة، جيش قريش الذين يقاتلوننا وجهاً لوجه، وأولئك الذين من الممكن أن يلتفوا علينا، فوضع

سبعين من أمهر رماتنا على الجبل وقال لهم: لا تبرحوا أماكنكم، إذا رأيتمونا ننتصر فلا تشاركونا، وإذا رأيتمونا نُهزم فلا تنصرونا.

وبدأت المعركة، وأبلينا بلاءً حسناً، وكانت هند بنت عتبة قد وعدتْ وحشي بن حرب إن قتل حمزة بن عبد المطلب الذي قتل أباها يوم بدر أن تعتقه، وكان حمزة يومها كما هو دائماً أسد الله وأسد رسوله، قتل وحده ثلاثين من جيش قريش، وبينما حمزة يصرع الفرسان واحداً تلو آخر باغته وحشي بالحربة من بعيد فاستشهد، فقال المسلمون: استشهد حمزة فلنثأر له. فهجمنا على جيش قريش بشراسة أشد من الأولى ففروا أمامنا، ولكن الرماة على الجبل لما رأوا هذا المشهد تركوا أماكنهم، وخالفوا وصية النبي ﷺ لهم، عندها اغتنم خالد بن الوليد هذه الفرصة، والتفَّ علينا بفرسانه الذين كان يقودهم، فلما رأى مقاتلو قريش الفارين هذا المشهد عادوا أدراجهم، ووقع ما كان النبيُّ ﷺ يخشاه، صرنا في الوسط فريق من جيش قريش يقاتلنا من الأمام، وخالد ومن معه يقاتلوننا من الخلف، فسقط منا سبعون شهيداً وأُشيع وقتها أن النبيَّ ﷺ قد قُتلَ، فقال أنس بن النضر لرجال قد ألقوا أسلحتهم: ما تصنعون؟

فقالوا له: قُتلَ رسول الله!

فقال لهم: فماذا تصنعون بالحياة بعد رسول الله، قوموا فموتوا على ما مات عليه.

شُجْ يومها رأس النبي ﷺ، وكُسرت مقدمة أسنانه، وأول من رآه حياً يومها كعب بن مالك، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ حيٌّ يُقاتل.

عندها تجمعنا خلف رسول الله ﷺ، وبدأنا ننسحبُ تدريجياً حتى صعدنا الجبل ليصعب على قريش أن تتبعنا.

- فما الذي حدث بعد ذلك؟
- تأخرت قريش عند سفح الجبل، غير أن أُبي بن خلف تبعنا وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا!

فقلنا يا رسول الله: أينزلُ إليه أحد منا؟

فقال: دعوه.

ثم تناول الحربة من أنس بن الصُّمة، فرماه بها فأصابه في رقبته وألقاه عن فرسه!

- أليس أُبي بن خلف الذي راهنته على نصر الروم على فارس مقابل مئة ناقة؟
- بلى، هو بعينه.
- فهل مات من أثر هذه الضربة؟
- لم يمت مباشرة، وإنما مات من أثر جرحه وهم في طريق عودتهم إلى مكة، وتحقق وعد رسول الله ﷺ فيه.

- أي وعد؟

- كان أُبي بن خلف يلقى النبي ﷺ في مكة فيقول: يا محمد إني أعلفُ فرسي كل يوم مكيالاً من ذرة، وسأقتلك عليه.

فيقول له النبي ﷺ: بل أنا أقتلك إن شاء الله.

ولم يقتل النبي ﷺ رجلاً بيده غيره، وكان كثيراً ما يقول: أشقى الناس من قتل نبياً أو قتله نبي!

- فهل تقدَّم إليكم من قريش أحد بعد أُبي بن خلف؟

- أجل يا بُني تقدَّم أبو سفيان حتى إذا وقف في مكان يرانا ونراه قال: أفيكم محمد؟

فقال النبي ﷺ: لا تجيبوه.

ثم قال: أفيكم ابن أبي قحافة، يقصدني أنا؟

فقال النبي ﷺ: لا تجيبوه.

ثم قال: أفيكم عمر بن الخطاب؟

فقال النبي ﷺ: لا تجيبوه.

فالتفتَ إلى جيش قريش وقال: أما هؤلاء فقد قُتلوا، ولو كانوا أحياءً لأجابوا.

فلم يتمالك عمر بن الخطاب نفسه، فقال: كذبتَ يا عدو الله، فقد أبقى الله لكَ ما يُخزيك.

فقال أبو سفيان: الحرب سِجال، يومٌ بيوم بدر.

فقــال النبــي ﷺ: أجيبوه فقولوا: ليســوا ســواءً قتلانــا في الجنة وقتلاكم فــي النار.

فقال أبو سفيان: اعلُ هُبل.

فقال النبي ﷺ: أجيبوه فقولوا: الله أعلى وأجلُّ.

فقال أبو سفيان: العُزى لنا ولا عُزى لكم.

فقال النبي ﷺ: أجيبوه فقولوا: الله مولانا ولا مولى لكم.

ثم رجعت قريش إلى مكة، ونزلنا فدفنا شهداءنا.

- وماذا عن فتح مكة يا خليفة رسول الله؟
- يـا بُنـي لا يمكننـا الحديـث عن فتح مكـة قبل المـرور على صلـح الحديبيـة، فقـد كان ذاك الصلـح هـو بوابـة الدخول إلـى مكة.
- فحدثني إذاً.
- لـكَ هـذا إن شـاء اللـه، رأى النبـيُّ ﷺ فـي منامه أنـه دخل إلـى مكـة مـع أصحابـه، فبشـرنا بذلـك، ففرحنـا فرحـاً شـديداً، وخـرجَ بنـا محرميـن نريدُ العمـرة ولا نسـعى إلى قتـال. ولكـن قريشـاً عزمـتْ أمرهـا علـى أن تمنعنـا مـن دخـول مكـة، فعسـكرنا بالحديبيـة، وجـرتْ بيننـا وبيـن قريـش مفاوضـات طويلـة، ثـم تـمَّ الصلـح بيننـا وبينهـم عندمـا أرسـلت قريـش سـهيل بـن عمـرو.
- فما هي بنود صلح الحديبية يا خليفة رسول الله؟
- كانت بنود الصلح أربعة:

الأول: أن نرجـعَ عـن مكـة هـذا العـام ثم نرجـع إليهـا للعمرة العـام القادم.

الثانـي: أن تضـع الحـرب أوزارهـا مـدة طويلـة هـي عشـر سـنوات.

الثالـث: مـن أراد مـن العـرب أن يدخـل في حلف المسـلمين دخـل معهـم، ومـن أراد أن يدخل فـي حلف قريش دخـل معهم، ويصبـح ذلـك الفـرد أو القبيلـة التي دخلتْ مـع أي مـن الفريقين جـزءاً من الفريـق الذي دخلـتْ فيه وأي اعتـداء يتعرض لـه يُعتبر اعتـداءً على الفريـق كله.

الرابـع: مـن جـاء من قريـش إلينا مسـلماً رددناه إليهـم، أما من جـاء من المسـلمين إلـى قريش لم تـرده إلينا.

- أليـس فـي بعض هـذه البنـود اجحافـاً لكم يا خليفة رسـول الله؟
- هكـذا رآهـا أغلـب المسـلمين ممـن شـهدوا الصلـح، ولكني كنـتُ أعلـم أن الرجـل نبـي، وأنـه مأمـور مـن ربـه، وأنَّ اللـه تعالـى لن يضيعـه، وجرى بينـي وبين عمر بن الخطـاب يومها حـوار طويـل حـول الأمر، حيـث كان عمـر يرى بنـود الصلح اجحافـاً. فقلـت لـه: يـا عمـر إن الرجل لنبـي فالـزم غرزه.

- مـا أحسـن اتباعـك وتسـليمك يـا أبا بكـر، ولكني لـم أفهم مـا علاقـة صلـح الحديبية بفتـح مكة؟
- سـأخبرك يـا بُنـي، قلـتُ لـكَ أن البنـد الثالـث مـن صلـح الحديبيـة كان يقضـي أنـه مـن أراد مـن قبائـل العـرب أن يدخـل فـي حلفنـا دخـل فيـه، ومـن أراد أن يدخـل فـي حلـف قريش دخـل فيه، وأنـه بمجـرد دخوله يصبـح جزءاً

مـن الفريق الذي دخـل فيه، وأي اعتـداء عليه يُعتبـر اعتداءً علـى الفريـق كلـه، أليـس كذلك؟

- بلى، لقد أخبرتني بهذا.
- حسـناً إذاً، لقـد دخلتْ قبيلة بكر في حلـف قريش، ودخلتْ قبيلـة خزاعـة في حلفنـا، واسـتمرتْ بنود المعاهدة سـارية ثمانية عشـر شـهراً، ثـم إنَّ بكـراً هجمت علـى خزاعة ليلاً، وكانـت قـد أخـذتْ بعـض السـلاح والرجـال مـن قريـش معتقديـن أن الوقـت ليـل ولـن ينكشـف أمرهـم، وعلـى أيـة حـال كان هجـوم بنـي بكـر وحـده كافيـاً ليكـون خرقاً للمعاهـدة، فكيـف وقد شـاركت قريـش فيه.
- هذا صحيح، فما الذي حدث بعد ذلك؟
- جـاء عمرو بن سـالم سـيد خزاعة إلـى المدينة، فسـلَّم على النبي ﷺ ثم أنشـده شـعراً قائلاً:

اللهـــمَّ إنـــي ناشـــدٌ محمـــداً
حِلـــفَ أبِينـــا وأبيـــه الأتلـــدا
فانْصُـــر هـــداكَ اللـــه نصـــراً أعتـــدا
وادعُ عبـــادَ اللـــهِ يأتـــوا مـــددا

فقال له النبيُّ ﷺ: نُصرتَ يا عمرو بن سالم.

فجهـز جيشـاً قوامـه عشـرة آلاف مقاتـل، ودعـا حلفـاءه مـن خزاعـة والعـرب، ودخـل مكـة فاتحـاً، وصعـد بـلال علـى ظهر الكعبـة معلنـاً أن اللـه أكبـر، وأن مكـة سـتبقى عاصمـة التوحيـد حتى قيـام السـاعة.

- والآن قبل الحديث عن توَلِّيكَ الخلافة، هل تأذن لي يا خليفة رسول الله أن أسألك عن أشياء حدثتْ معك في المدينة في حياة النبي ﷺ؟

- تفضَّلْ يا بُني، سَلْ عما بدا لكَ.

- ما قصة قول النبي ﷺ لكَ أن أبواب الجنة كلها تُناديك؟

قال رسول الله ﷺ يوماً: من أنفقَ زوجين في الإسلام في سبيل اللهِ نوديَ من أبواب الجنَّةِ، يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعيَ من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعيَ من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعيَ من باب الريَّان، ومن كان من أهل الصَّدقة دُعيَ من باب الصدقة.

فقلتُ: يا رسول الله، هل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟

فقال: نعم، وأرجو أن تكون منهم.

- يا لها من بُشرى يا أبا بكر، أبواب الجنة كلها ستنادي عليكَ .

- يا بُني إني أسأل الله السلامة.

- أبو بكر يسأل الله السلامة، فماذا نقول نحن؟

– غفر الله لنا ولكم، ونسأله أن يتقبل منا ما عملناه في سبيله .

– اللّهم آمين، فهل نكمل يا خليفة رسول الله؟

– نكمل إن شاء الله.

– فحدثني يا خليفة رسول الله عن قولك لعمر بن الخطاب ما كنتُ لأفشيَ سرَّ رسول الله ﷺ.

– كانت حفصة بنت عمر بن الخطاب متزوجة من خُنيس بن حذافة، وكان رجلاً عابداً تقياً وممن شهدوا مع النبي ﷺ غزوة بدر، ثم مات خُنيس، فلما انقضتْ عِدة حفصة، أراد عمر بن الخطاب أن يبحث لها عن زوجٍ، فلقيَ عثمان بن عفان فقال له: إن شئتَ زوجتك حفصة.

فقال له عثمان: دعني أنظرُ في أمري.

فلقيه عثمان في اليوم التالي فقال له: لقد بدا لي أن لا أتزوّج.

فوجدَ عمرُ في قلبه شيئاً على عثمان!

ثم لقيني فقال: يا أبا بكر إن شئتَ زوجتك حفصة.

فسكتُ، ولم أقل شيئاً. فكان عمر أوجدَ عليَّ مما على عثما ن !

ثم بعد أسبوع خطبها النبيُّ ﷺ لنفسه، وتمَّ الزواج.

فلقيتُ عمر بن الخطاب فقلتُ له: يا عمر، لعلكَ وجدتَ عليّ في نفسكَ شيئاً إذ لم أُجبكَ يوم عرضتَ عليَّ الزواج من

حفصـة، أمـا إنـه لـم يمنعنـي إلا أني سـمعتُ رسـول اللـه ﷺ قد ذكرهـا لـي يريدهـا زوجة لـه، وما كنتُ لأفشـيَ سِـرَّ رسـول الله. ولو تركهـا لتزوجتها.

- ألم يجدْ عمر حرجاً في أن يبحث لابنته عن زوج؟
- وأيـن الحـرج فـي ذلـك يـا بُنـي، لمـاذا نبحـث للولـد عن زوجـة صالحـة، ولا نبحـث للبنـت عـن زوج صالـح؟
- أقصـد أن العـادة جـرتْ أن يكـون الشّـاب هـو الخاطـب، فيطـرق بـاب أهـل البنـت، لا العكـس
- نعـم هكـذا جـرت العـادة، وهكـذا كانـت الحيـاة تسـير فـي المدينـة، ولكـن ما المانـع في أن يرى الرجل شـاباً تقيـاً ورعاً يرضـاه زوجـاً لابنتـه فيحدثـه فـي شـأنها، يـا بُنـي إن الحلال والعيـب لا يجتمعـان، ثـم فكِّـرْ في الأمـر من زاويـة الأب لا مـن زاويتـك أنـتَ، رجـل لديـه ابنـة أرملـة، فأيهمـا خيـر أن يجـد لهـا زوجـاً صالحاً، ويسـعى لإصـلاح دنياهـا، لأن هذه هـي سُـنة الحيـاة، أو يتركها هكـذا في الـدار، الأمـر لا يتعلق بطعامهـا وشـرابها لا أحد منـا يُزوج ابنتـه لأنه يسـتثقل النفقة عليهـا، رزق العبـاد جميعهـم على اللـه، ولكن الحياة ليسـت طعاماً وشـراباً ولباسـاً، خُلقـت المرأة للرجـل، وخُلق الرجل للمـرأة. فطـرة الله التـي فطرنـا عليها.
- فهل ترى هذا مقبولاً في المطلقة والأرملة فقط؟
- لا أبـداً، ومـا المانـع أن يسـعى الأب لتزويـج ابنتـه البكـر أيضـاً، أن يراهـا فـي كنـف رجـل يرعاهـا ويحنو عليهـا، يا

بُنـي الأب لا يسـدُّ مـكان الـزوج، والـزوج لا يسـدُّ مـكان الأب، تماماً كمـا أن الأم لا تسـدُّ مكان الزوجـة، والزوجة لا تسـدُّ مـكان الأم.

– حسـناً فهمـتُ، ولكن ما منعـكَ حين عرضَ عليـكَ الزواج مـن حفصة أن تخبـره أن النبي ﷺ أرادها لنفسـه؟

– يـا بُنـي إن المجالـس بالأمانـات، وقد أفضى إلـيَّ النبيُّ ﷺ بسـرٍّ بيني وبينه، فيكف أكشـفُ سِـرَّه؟

– أقصد كي تتجنّب أن يجد عمر في قلبه شيئاً عليك.

– ومـاذا لـو غيّـر النبـي ﷺ رأيـه وعـدلَ عـن الـزواج مـن حفصـة، ألـن يتسـاءل عمـر مـا الـذي حـدث، وقـد يدخل الشـيطان فـي الأمـر فيحـرِّش بيـن المؤمنيـن، ويعتقد عمر أن النبـيَّ ﷺ قـد سـمعَ شـيئاً عـن ابنتـه .

– كلامك صحيح يا خليفة رسول الله.

– لهذا تريثتُ، وعندما تم الزواج شرحتُ موقفي لعمر.

– فنعمَ ما فعلتَ.

– بـارك اللـه بـكَ يـا بُنـي، فهل عنـدك شـيء بعد تسـألني عنه أم انتهينا؟

– لا لـم ننتهِ بعد، ما زال في جعبتي الكثير!

– فقُلْ إذاً.

– ما خبر الطعام الذي أحضره غلامكَ لكَ، فتقيأتَ بعد؟

- كان لـي غـلام يعمـل عنـدي، وكان مـن عادتـي إذا جاء لي بطعـام مـن غيـر مالـي سـألته عـن مصـدره، وفـي يـوم من الأيـام جـاء لـي بطعـامٍ فأكلـتُ، فقـال لـي: كنـتَ تسـألني دومـاً عـن الطعـام مـن أين أتيـتَ به ومـا أراك سـألتني هذه المرة!

فقلتُ له: فمن أين أحضرتَ هذا الطعام؟

فقـال: كنـتُ قـد تكهنـتُ لرجـلٍ مـن الجاهليـة، ومـا أحسـنُ الكهانـة إلا أنـي خدعتـه، فلقينـي فأعطانـي هـذا الطعـام.

فأدخلتُ يدي في فمي أريد أن أتقيأ فلم أقدر.

فقالوا: لا تخرج إلا بالماء.

فجعلتُ أشرب الماء، وأضع يدي في فمي وأتقيأ.

فقالوا: قد أكثرتَ على نفسك.

فقلـتُ: واللـهِ لـو لـم تخـرج إلا بطلـوع روحـي لأخرجتهـا، فإنـي سـمعت النبـي ﷺ يقـول: أيّمـا لحـم نبتَ مـن حـرامٍ فالنار أولـى به.

- ولكنكَ لم تكن تعرف.

- قد عرفتُ.

- أقصـدُ أنـه ليـس ذنبـكَ، وقـد اعتـدتَ أن تسـألَ فنسـيتَ هـذه المـرة، أمّـا كان يكفـي أن تسـتغفر، فلسـتَ صاحـب الكهانـة؟

- لسـتُ صاحـب الكهانـة نعـم، ولكنـي صاحـب بطنـي وما كان لبطـن أبـي بكـر أن يدخلـه شـيء مـن حرام.

- بهذا الورع سبقتَ الناس يا أبا بكر.
- يا بُني وددتُ لو خرجتُ من الدنيا كفافاً لا لي ولا عليَّ.
- خرجتَ منها لك أجر إسلامك، وجهادك، وإفناء نفسك ومالك لهذا الدين، فأسأل الله أن يتقبّل منك.
- بارك الله بك يا بُني، وما أحبُّ المديح، فهل عندكَ شيء بعد تسأل عنه؟
- واللهِ إنك لأهل للمديح، ولكن كما تشاء، سأمسكُ لساني هذه المرة. وبالفعل ما زال عندي ما أسأل عنه.
- فعن أي شيء تريد أن تسأل؟
- عن قول النبي ﷺ: فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟
- جرتْ بيني وبين عمر بن الخطاب محاورة، فقام عمر غاضباً، فلحقته أسأل أن يسامحني ويستغفر لي، فأبى، حتى أنه أغلقَ بابه في وجهي.

فأتيتُ إلى النبي ﷺ لأحدّثه بما جرى بيني وبين عمر، وقد بدا على وجهي أثر الانزعاج، فعرف النبيُّ ﷺ ذلك بفراسته، فقال لمن حوله قبل أن أتكلم: أما صاحبكم فقد غامرَ/ خاصمَ.

فسلَّمت، وجلستُ، وأخبرتُ النبيَّ ﷺ بالذي كان بيني وبين عمر، وكيف طلبتُ منه أن يسامحني، ويستغفر لي فرفض.

فقال لي النبي ﷺ: يغفر الله لك يا أبا بكر.

- وما الذي حدث بعد ذلك؟

- ندمَ عمر بن الخطاب على ما كان بيني وبينه، فقصدني في بيتي ليعتذر إليَّ فلم يجدني، فأتى مجلسَ النبي ﷺ، فسلَّمَ وجلسَ، والنبيُّ ﷺ تبدو عليه علامات الغضب، فخشيتُ أن يقول شيئاً لعمر يُحزنه، فجثوتُ على رُكبتيَّ وقلتُ: يا رسول الله، واللهِ أنا كنتُ أظلم/ أي أن الحق مع عمر.

- فقال النبيُّ ﷺ: إنَّ الله بعثني إليكم فقلتم كذبتَ، وقال أبو بكرٍ صدقَ. وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!

- يا لحب النبيِّ ﷺ لك يا أبا بكر إذ لم ينسَ فضلكَ.

- بل قُلْ يا لوفائه، ففضله عليَّ أكبر، يكفي أن الله تعالى قد هداني به إلى الإسلام، ولكنه يذكر صنيعي معه، وينسى صنيعه معي، وهذا هو شأن النبلاء، دوماً، يذكرون معروف الناس معهم، ويتحينون الفرص لسداده، وينسون معروفهم مع الآخرين، ولا ينتظرون عوضاً ولا سداداً، وقد كان النبيُّ ﷺ سيد النبلاء.

- فعلى أي شيء كان الخصام بينك وبين عمر؟

- يا بُني ليس المهم على أي شيء كان الخلاف، سَمِّه خلافاً لا خصاماً، الناس عقول وآراء، وكل واحد يرى الأمور بعقله ورأيه، ويحدث أن تختلف وجهات النظر، بل هي غالباً ما تختلف، والناس نفسيات وقلوب، وقد

يكـون المـرء متضايقـاً مـن أمر مـا، فـلا يتحمل كلمـة لأنه فـي ظـرف غير عـادي، بينما لو كان فـي حالتـه العادية ربما تقبَّل جبـالاً مـن الكلمات.

- صدقـتَ يـا خليفـة رسـول اللـه، ولكـن لمـاذا قمـتَ وراء عمـر تسـترضيه؟

ولِـمَ لا أفعـل، أخـي وصاحبي وقد حـدث بيننا خـلاف، وهو أحـبَّ إليَّ مـن رأيي، وكسـبُ الناس أولـى من كسـب المواقف، وقـد أردتُ بذلـك أن أخبـر عمـر بن الخطـاب أنه أثيـر على قلبي

- فلماذا لم يقبل اعتذارك وأغلقَ بابه في وجهك؟

- يـا بُنـي لـكل إنسـان طبـع، ولـو فهمنـا طبـاع النـاس الذين نتعامـل معهـم لتجنبنـا الكثيـر مـن المشـاكل، ولفهمنـا أن الإنسـان إنّمـا فعـل هـذا لطبـع فيـه وليـس الأمـر مسـألة شـخصية، هـذا هـو طبـع عمـر، قـوي وحـاد، وردة فعلـه تشـبه طبعـه، وإنه فـي طبعه هـذا يحـبُّ الله ورسـوله، نذر نفسـه لخدمـة ديـن اللـه. فاسـأل اللـه أن يتقبـل مـن أخـي وحبيبـي عمـر بـن الخطـاب.

- فلمـاذا ذهبـتَ أنـتَ إلـى النبي ﷺ تخبـره بالـذي كان بينك وبيـن عمر؟

- لقـد عـزَّ علـيَّ مـا حـدث بينـي وبيـن عمر، فـإن لـم أذهب إلـى النبـي ﷺ ليكـون واسـطة خير بيننـا، ويحكم بمـا أراه اللـه، فإلـى مـن أذهـب، ثـم أليـس إذا حدث خـلاف بينك وبيـن صديـق لـك، وأردتَ أن ترضيـه بحثـتَ عـن صديقٍ

مشـتركٍ بينكمـا يكـون واسـطة خير؟

- بلى.
- ولقد كان النبي ﷺ هو صديقنا المشترك.
- ونبيـل عمـل بـن الخطـاب أيضـاً يـا خليفـة رسـول اللـه، إذ عندمـا هـدأ، لـم يُهـن عليـه أيضـاً مـا كان بينكمـا، فجاء إليـكَ فـي بيتـك يريـدُ أن يصلـح الأمـر.
- هـذا هـو عمـر، الشـديد الحـازم، الـذي إذا زالـت عنـه فـورة الغضـب، رجـع إلـى الحـق، وإن فـي شـخصية عمر شـيء من شـخصية موسـى عليـه السـلام، ألا تذكـر حادثة الأسـرى يـوم بـدر، كيـف أخبـره النبـي ﷺ أنـه فـي رأيـه كموسـى عليـه السـلام، موسـى أيضـاً كان في طبعه شـيء مـن الحـدة، فحين غضب مـن بني إسـرائيل ألقـى الألواح التـي كُتبـت بها التـوراة كمـا أخبرنا ربنـا في كتابـه الكريم. ولمـا ذهبـتْ عنـه فـورة الغضـب كان أول ما فعلـه أن أخذ الألـواح، الإنسـان لا يمكنـه أن يتخلـص من طبعـه، ولكنه لا يجـري وراءه ولا ينسـاق لـه، ونبـي اللـه موسـى عليـه السـلام غضـب للحظـة، ثـم أعـاده إيمانـه ونقـاء قلبـه إلى الشـكل الـذي يجـب أن يكـون عليه، وهـذا ما فعلـه عمر، غضبـه الأول يُشـبه إلـى حـد بعيـد إلقـاء سـيدنا موسـى للألـواح، ومجيئـه إلـى بيتـي يحـاول إصـلاح مـا كان بيننا يُشـبه إلـى حـد بعيـد ذهـاب فـورة الغضب عـن كليـم الله.
- جميل هذا الربط يا خليفة رسول الله.

- بارك الله بكَ يا بُني، فهل ما زال عندك شيء تسأل عنه؟
- أجل ما زال عندي ما أسأل عنه.
- فعن أي شيء تُريد أن تسأل هذه المرة؟
- عن قصة قولك أدخلاني في سِلمكما كما أدخلتماني في حربكما.
- دخلتُ على النبيّ ﷺ أزوره وهو في بيت ابنتي عائشة، وكان بينها وبينه ما يكون بين المرأة وزوجها من خلاف البيوت، فسمعتها ترفع صوتها على النبيِّ ﷺ، فغضبتُ، وهممتُ أن أضربها وقلتُ: أترفعين صوتكِ على رسول الله ﷺ؟!

فحالَ النبيُّ ﷺ بيني وبينها فمنعني منها.

فلما خرجتُ جعل النبيُّ ﷺ يقول لها: ألا ترين أني قد حلتُ بينك وبين الرجل؟

ثم عدتُ ودخلتُ عليهما آخر النهار فإذا هما يضحكان.

فقلتُ لهما: أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما.

فقالا: قد فعلنا.

- خلاف زوجي في بيتِ النبيِّ ﷺ، أليس هذا عجيباً يا أبا بكر؟
- وأين العجب في هذا يا بُني، الأنبياء في نهاية المطاف بشر من الناس، وأهلهم كذلك، ويحدث في بيوت الأنبياء ما يحدث في بيوت الناس.

الخلافـات الزوجيـة تقـع فـي كل البيـوت، تفرضهـا المعاملـة اليوميـة، وهمـوم الحيـاة، وتقلب النفس البشـرية بين طـور وآخر، وعندمـا ترفـع عائشـة صوتهـا علـى النبـيّ ﷺ، فلأمـر لا علاقـة لـه بمنسـوب الإيمـان، ولا بمقـدار التقوى، إنهـا الحيـاة الزوجية فقـط، وهـي حين فعلـتْ هذا لم تفعلـه بصفتها إحدى المسـلمات العاديـات، وإنمـا بصفتهـا زوجة، بمعنـى أن أي امرأة قـد تتعجب وتقـول: كيف لامـرأة أن ترفع صوتهـا في وجه النبـي ﷺ، ولكنها لـو كانـت زوجتـه، وحصل بينهـا وبينـه ما يحصـل بيـن الأزواج، وفـي كل البيـوت، لربمـا فعلـتْ أكثـر مما فعلتْ عائشـة.

- فلماذا أردتَ أن تضربها إذاً؟
- لأنه لم يهُنْ عليَّ أن أراها ترفع صوتها على النبيِّ ﷺ.
- ألم تقل أن هذا شيء طبيعي ويحدث في كل البيوت؟
- بلـى، قـد قلتُ هـذا، ولكـن كون الأشـياء قابلـة للحدوث، وهـي إن حدثـتْ فضمن السـياق الطبيعي للحيـاة، وهذا لا يعنـي أن نرضـى بها، وأنـتَ إذا دخلتَ بيت ابنتـك، ورأيتَ خلافـاً بينهـا وبين زوجهـا ستسـعى لإصلاحه، ولـن تقول هـذا الأمر طبيعـي ويحدث.

تفهُّـم الأشـياء الطبيعيـة القابلة للحدوث شـيء، وعـدم العمل علـى إزالتهـا شـيء آخـر، ثـم هـذا رسـول اللـه ﷺ، ولا أرضـى أن أقـف فـي صـف ابنتـي ضـده ولـو كان الأمـر شـيئاً في سـياقه الطبيعي.

- إذاً أنتَ مع أن يتدخّل الأهل في حياة أبنائهم الزوجية؟
- يـا بُني إن التّدخّـل في حياة الأولاد الزوجيـة في كل صغيرة وكبيـرة، وإملاءعليهـم كيـف يتصرّفـون، ومـاذا يفعلـون شـيء، والتّدخّل فـي مواقـف معينة لإصلاح الأمور شـيء آخر.

أنـا مـع أن نتـرك الأولاد يعيشـون حياتهـم، ومع عـدم التدخل فـي كل صغيـرة وكبيرة، والتعليق على الشـاردة والـواردة. ولكني مـع إذا وقـع الخلاف أن يسـعى الأهل ما اسـتطاعوا ليصلحوا هذا الخـلاف بعقـل وحكمة وعـدل، دون تعصب أهل البنـت لابنتهم لدرجـة أن ينسـوا فضل صهرهـم، وكل مواقفه المشـرّفة السـابقة معهـم ومعهـا، ودون تعصـب الأهـل لابنهـم لدرجـة أن ينسـوا أيضـاً كل مواقـف كِنَّتهم المشـرّفة السـابقة معهـم ومعه.

مـا أردتُ قولـه أن نُميِّـز بيـن التدخـل الـذي يُشـبه الوصايـة، وبيـن التدخـل الذي يُشـبه الرعاية، فالأول مذمـوم ولا خلاف في ذلـك، والثانـي محمـود مطلوب مـا زال عقـلاء الأهـل يفعلونه.
- حسـناً فهمـتُ، ولكن لِمَ برأيـك منعكَ النبـيُّ ﷺ أن تنتصر له مـن ابنتك؟
- لأنـه نبيـل، ولأن عائشـة لـم تهُنْ عليـه وهما فـي خلافهما، أراد أن يخبرهـا أنهـا غاليـة عنـده، وأن الخـلاف معهـا طقـس، سـرعان مـا يحل مـكان المطر شـمس مشـرقة، أما

حبهـا فـي قلبـه فمنـاخ ثابـت، يتكـرر دوماً.

- واللهِ إنَّ هذا النبيَّ لمدرسة!

- وهكـذا كان فـي كل مواقـف حياتـه، فـي فرحـه وحزنـه مدرسـة، فـي رضـاه وغضبـه مدرسـة، فـي كلامـه وصمته مدرسـة، فـي حركاتـه وسـكناته مدرسـة.

- واللهِ إنكَ قلتَ فصدقتَ.

- فهل انتهينا، أم ما زال عندكَ شيء تسأل عنه؟

- ما زال عندي أشياء يا خليفة رسول الله.

- فقُلْ إذاً.

- ما قصة نافقَ حنظلة؟

- خـرجَ حنظلـة بن الربيع مـن بيته ضجراً، فلقيتـه في الطريق، فقلـتُ: كيف أنـتَ يا حنظلة؟ فقـال: نافقَ حنظلة!

فقلتُ: سبحان الله، ما تقول؟

فقـال: نكـون عند النبـي ﷺ يُذكِّرنـا بالجنـة والنار كأننـا نراها رأي العيـن، فـإذا خرجنـا مـن عنـده عافسـنا الأزواج والأولاد والضيعـات فنسـينا كثيـراً.

فقلتُ: فو اللهِ إنَّا لنلقى مثل هذا!

فانطلقنـا حتـى إذا أتينـا النبـيَّ ﷺ، فقـال لـه حنظلـة: نافـقَ حنظلـة يـا رسـول اللـه.

فقال له: وما ذاك؟

فقـال: نكون عنـدكَ تُذكِّرنا بالجنة والنـار كأننا نراهـا رأى العين، فـإذا خرجنا مـن عندك عافسـنا الأزواج والضيعات فنسـينا كثيراً.

فقال له النبيُّ ﷺ: والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة في الطرقات، لكن يا حنظلة ساعة وساعة.

- فما قصد النبيُّ ﷺ بقوله ساعة وساعة؟
- قصد أنه يستحيل على المسلم أن يبقى على وتيرة واحدة من العبادة، ثمة حياة عليها أن تمضي قُدماً، هناك تحصيل رزق، وزوجة وأولاد، وأقارب وأصدقاء وجيران، وزيارات ومناسبات، وهذا هو معنى ساعة وساعة.

وأنها لاتعني أن تكون ساعة لربك وساعة لشيطانك، ساعة في المسجد وساعة في مجلس الغيبة والنميمة، ساعة تتصدق وساعة تأكل الربا، ساعة مع صحبة صالحة وساعة مع صحبة فاسدة، ساعة على سجادة صلاتكِ وساعة متزينة متعطرة يشم ريحكِ الناس!

ساعة وساعة تعني أن لا تكون في العبادة ولكنك في المباح لا في الحرام.

- حسناً فهمتُ.
- شرح الله صدركَ يا بُني.
- اللهم آمين، وإياك يا خليفة رسول الله.
- فماذا عندك بعد؟
- أردتُ أن أسأل عن قول أُسيد بن حُضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر؟

- خرجنا مع النبيِّ ﷺ في بعض أسفاره، وكانت معه من نسائه ابنتي عائشة، حتى إذا كنا في مكان من الصحراء، انقطع عِقدٌ لعائشة، فأوقف النبيُّ ﷺ مسير القوم، وجعل يبحثُ لها عن عقدها، وجعل الناسَ يبحثون معه، ولكن دون جدوى، وقد اقتربَ وقت الصلاة، وليس معنا ماء للوضوء، وبسبب تأخرنا في البحث عن عِقد عائشة لم يعد بإمكاننا أن نبلغ المكان الذي فيه ماء لنتوضأ، ودخل النبيُّ ﷺ خيمة عائشة لينام قليلاً. وجعلَ الناسَ يقولون لي: ألا ترى ما فعلتْ عائشة بالنبيِّ ﷺ والناس معه، وليسوا في موضع ماء، وليس معهم ماء يكفي للوضوء، وإنما هو للشرب.

فدخلتُ خيمة النبيِّ ﷺ فإذا هو نائم وواضع رأسه على فخذ عائشة، فعاتبتها بصوتٍ منخفضٍ خشية أن يستيقظ النبي ﷺ، وجعلتُ أطعنها في خاصرتها بإصبعي لشدة ما سمعتُ من عتاب الناس، وهي تتحامل على نفسها كي لا تتحرك وتوقظ النبي ﷺ.

- فما الذي حدثَ بعد ذلك؟

- بعد وقتٍ قصيرٍ قام النبيُّ ﷺ للصلاة، وليس معنا ماءٌ كما أخبرتك، فأنزل الله تعالى آية التيمم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ

إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

فقال لي أُسيد بن حُضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر.

- فما الذي عناه بقوله هذا؟
- أراد أن يقول أن رخصة التيمم لمن لم يجد ماءً، أو وجده وكان عاجزاً عن استخدامه، إنما نزلتْ بسبب هذه الحادثة، فلو تابعنا مسيرنا لكنا قد بلغنا الماء، وما نزلت آية التيمم، ولكن ليمضي قدر الله، ويقضي أمراً كان مفعولاً.
- واللهِ إنها لبركتكم يا آل أبي بكر.
- بارك الله بكِ يا بُني، ولكني أراك لم تنتبه لشيء هذه المرة ولم تسأل عنه!
- وما هو يا خليفة رسول الله؟
- أما رأيتَ كيف أخَّرَ النبيُّ ﷺ مسير قوم بأكملهم لأجل أن يبحث لعائشة عن عقدها؟
- بلى والله إنه لتصرف عجيب.

- أرأيتَ كيف كان النبيَّ ﷺ ينتبه لأدق التفاصيل، وكيف يجبر الخواطر في مواقف يظنّ الناس أنها ليست

موضعاً لهذا، ولكنه برحمته وشفعته ما كان ليترك هذه الحادثة تمر مرور الكرام.

- صدقتَ يا خليفة رسول الله، فماذا عن العقد، هل وجدتموه؟
- أجل وجدناه، فبعدما نزلت آية التيمم وتيممنا وصلينا، أردنا الارتحال، فحركنا الناقة التي تركبُ عليها عائشة فإذا العقد تحتها.
- أسرة مباركة يا أبا بكر.
- بارك الله بك يا بُني، فماذا عندك بعد؟
- أردتُ أن أسألك عن حديث جرِّ الثياب خُيلاء، وشهادة النبيِّ ﷺ لك؟
- كنا عند النبي ﷺ يوماً فقال: من جرَّ ثوبه خُيلاء، لم ينظر اللهُ إليه يوم القيامة.

فقلتُ: يا رسول الله، إنَّ أحدَ شِقَيْ ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه.

فقال: إنكَ لستَ تصنعُ ذلكَ خُيلاء.

- هذه براءة لك من الكِبر والخُيلاء هنيئاً لكَ هذه الشهادة من الصَّادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى.
- بارك الله بك يا بُني.
- ولكن أردتُ أن استفسر ما علاقة جرِّ الثوب بالخُيلاء والكِبر؟

- كان مـن عـادة العرب في الجاهليـة أنه مـن أراد أن يتكبَّر أو يسـتعلي علـى النـاس، أو أن يُظهـر ثـراءه حتى، جعـل ثوبه طويـلاً يجـرُّ علـى الأرض، وقـد جـاء الإسـلام بالتواضع، وللقضـاء علـى الاسـتعلاء والكِبـر فـي النفـوس، لمـا فيـه مـن ضـرر على قلـب صاحبـه، وضرر علـى قلـوب الناس لأن التعامـل مـع الثـري المتكبر ربمـا جعلهم ينظـرون إلى دُنيـاه، ويتمنـون مـا عنده مـن المال.

وقـد حدثنـا النبـيُّ ﷺ يوماً فقـال: بينما رجلٌ يمشـي فـي حُلَّةٍ تُعجبـه نفسـه، مُرَجِّـلٌ جُمَّتـه/ شَـعره، إذ خسـف اللـه بـه، فهـو يتجلجـل إلـى يـوم القيامة.

- وهـل الإسـلام ضـد أن يكـون الإنسـان أنيقـاً فـي ثيابـه، مسـرِّحاً شَـعره، واضعـاً عطـراً جميـلاً؟

- أبـداً يـا بُنـي، هـذا مـن الإسـلام، واللـه جميـل يُحـبُّ الجَمـال، وإنَّ اللـه يُحـبُّ أن يـرى أثـر نعمتـه علـى عبده. ولكـن الأناقـة شـيء والكِبـر شـيء آخـر.

الإسـلام مـع الأناقـة وضـد الكِبـر، أي ضـد أن يجعـل الرجل مـن مظهـره وسـيلة للاسـتعلاء على خلـق اللـه، الفكـرة كلها في أن تكـون الدنيـا في يدك لا في قلبـك، وأن يُجمِّلَ الثوب جسـدكَ لا أن يُفسـدَ قلبك!

- حسناً فهمتُ يا خليفة رسول الله.

- فهل عندكَ من شيء تسأل عنه بعد؟
- أجل ما زال عندي، فحدثني عن خلاف حدثَ بينكَ وبين ربيعة الأسلمي على نخلة كل منكما قال أنها له.
- كان ربيعة الأسلمي يخدمُ النبيَّ ﷺ، فأعطاه أرضاً بجوار أرضٍ لي، فجاء ربيعة يوماً فقال: هذه النخلة لي.

فقلتُ: لا هي لي.

فكان هو يقول لي ما يكون بين الخصوم، وأنا أقول له، حتى غضبتُ فقلتُ له كلمةً كرهتها، ثم ندمتُ، فقلتُ له: قُلْ لي مثلها.

فرفضَ أن يردَّ عليَّ...

فقلتُ: لتقولنَّ أو لأستعدينَّ عليكَ النبي ﷺ!

فانطلقتُ أريد النبي ﷺ، وانطلقَ ربيعة يَتبعني، فجاء جماعة من قوم ربيعة فقالوا له: رحمَ اللهُ أبا بكر، بأي شيءٍ يستعدي عليكَ النبيَّ ﷺ، وقد قال لكَ ما قال؟

فقال ربيعة: أتدرون من هذا؟ هذا أبو بكر الصديق، هذا ثاني اثنين، وهذا ذو شيبة المسلمين، إياكم أن تدخلوا في الأمر معي فيراكم تنصرونني عليه فيغضب فيأتي رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه. فيغضبُ الله تعالى لغضبهما، فيهلكَ ربيعة.

قالوا: فما تأمرنا؟

قال: اِرجعوا، أنا أذهبُ وحدي.

- وما الذي حدث بعدها؟

- تبعني ربيعة حتى إذا وصلنا عند النبيِّ ﷺ، سبقني بالكلام، وأخبره بالذي كان مني.

فقال له النبي ﷺ: يا ربيعة، ما لكَ وللصدِّيق؟

فقال ربيعة: يا رسول الله تخاصمنا في نخلة، فقال لي كلمةً كرهتها، ثم ندمَ على قوله، وأراد أن أقول له مثلها، فأبيتُ.

فقال له النبي ﷺ: أجل لا تردَّ عليه، ولكن قل له غفرَ اللهُ لك يا أبا بكر.

فقال لي: غفرَ الله لكَ يا أبا بكر.

فمضيتُ وأنا أبكي!

- فلماذا لم تتنازل له عن النخلة وأنتَ الذي أنفقتَ كلَّ مالكَ في سبيل الله؟

- يا بُني أن تكون كثير الصدقة شيء، وأن يأخذ الناس مالكَ وأنتَ تنظرُ إليه شيء آخر، ولو سألني ربيعة النخلة على أنها لي لكنتُ تركتها له، ولكن أن يقول أنها له وأنا على يقين أنها لي فقد وجدتُ أنه أنسبَ، أن أثبتَ حقي فيها.

- فهل كانت الكلمة التي قلتها له بذيئة؟

- معاذ الله، إني لم أكن فاحشاً بذيئاً في الجاهلية حتى أكون في الإسلام، ولكن في لحظة الغضب قد يقول الإنسان كلاماً يجرح فيه غيره وإن لم يكن هذا الكلام بذيئاً.

- صدقتَ، ولكن لماذا أردتَ منه أن يردَّ عليكَ بمثلها؟
- لأنـي لا أحـبُّ أن يكـون لأحدٍ عندي حـق، لا أريدُ أن أقف بيـن يدي اللـه تعالى يـوم القيامـة خصماً لأحد المسـلمين بسـبب كلمـة قلتها له.
- ولكـن للأمانة يا خليفة رسـول الله أعجبنـي أن ربيعة عرفَ قـدركَ، ووصفـكَ بأوصـافٍ تليـق بـكَ، وقد قـدَّر مكانتك مـن النبي ﷺ وأنـك أثير عنـده، وأنه يغضـب لغضبك.
- أي واللهِ لقد أنزلني منزلي، وهذا ما زاد الطين بلة!
- وكيف هذا؟
- يـا بُنـي حيـن تُخطئ في حـق أحد فيـردُّ عليكَ بمثـل ما قلته لـه واللـهِ أنه ليريحك، أمـا أن يعترف بفضلـكَ، دون أن يردَّ عليـكَ، فهـو عندهـا لـم يسـامحكَ، ولـن يدعـكَ تسـامح نفسكَ !
- وأعجبنـي موقـف النبـي ﷺ، فعلـى حبـه لكَ، وعلـى قوله لربيعـة ما لـكَ وللصدِّيـق، إلا أنه عندما عـرفَ أن الحقَّ مع ربيعة أرشـده لمـا فيه صـلاح القلوب.
- وهـل كنـتَ تحسـبُ أن النبيَّ ﷺ يقـفُ مع باطـل ضِدَّ حقٍّ لأجـل أحدٍ مـن النـاس ولو كان أبـا بكر؟
- لا واللـهِ، كيـف يفعـل وهـو القائـل: لـو أن فاطمـة بنـت محمـد سـرقتْ لقطعـتُ يدهـا!
- أحسـنتَ يـا بُني، فهـل انتهينا، أم ما زال عندك شـيء تسـأل عنه ؟

- بالفعل ما زال عندي ما أسأل عنه.
- فسَلْ إذاً.
- حدثني عن حديث البقرة التي تُكلمُ الناس الذي أخبر النبيُّ ﷺ للناس؟
- صلى النبيُّ ﷺ الفجر، ثم أقبل على الناس يُحدِّثهم فقال: بينما رجلٌ يسوقُ بقرةً له، إذ ركبها فضربها، فالتفتتْ إليه البقرة، فقالتْ: إني لم أُخلق لهذا، ولكني خُلقتُ للحرث

فقال الناس تعجباً: سبحان الله بقرة تتكلم؟

فقال النبيُّ ﷺ: فإني أؤمنُ به وأبو بكر وعمر!

ثم قال: بينما رجلٌ في غنمه إذ عدا عليه الذئب فذهب بشاةٍ منها، فلحقه حتى أنقذها منه، فقال له الذئب: قد استنقذتها مني، فمن لها يوم السَّبع؟ يوم لا راعي لها غيري؟

فقال الناس تعجباً: سبحان الله ذئب يتكلم؟

فقال النبيُّ ﷺ: إني أؤمنُ به وأبو بكر وعمر.

- فلماذا قال النبيُّ ﷺ: وأبو بكر وعمر تحديداً؟
- هذا لأننا كُنَّا غائبين!
- لم أفهم.
- أراد أن يقول للناس: لو أنَّ أبو بكر وعمر كانا جالسين معنا لصدَّقا ما قلته.
- يا لها من شهادة يا أبا بكرٍ لكَ ولعمر، كان يعلمُ أنكما تصدِّقانه في كل ما يقول ولو كان الحديث عجيباً على الناس.

- وهـذا واللـهِ حديثٌ أحـبَّ إليَّ مما شـهدته، اللهـمَّ إلا قوله فـي الغـار: يـا أبـا بكـر لا تحـزن إنَّ الله معنـا، يا أبـا بكر ما ظنـك باثنين اللـه ثالثهما.
- فهنيئاً لكَ يا خليفة رسول الله .
- بـارك اللـه بـكَ يـا بُنـي، فهـل عنـدكَ مـن شـيءٍ بعد تسـأل عنه ؟
- سؤال أخير في هذا المجال، واعذر إطالتي عليكَ.
- لا عليكَ يا بُني، فعن أي شيءٍ أردتَ أن تسأل؟
- عـن سـؤال عمـرو بن العـاص للنبـي ﷺ: أي النـاس أحبُّ إليك.
- بعـثَ النبـيُّ ﷺ عمـرو بـن العـاص أميـراً على غـزوة ذات السلاسـل، فعـادَ ظافـراً منتصراً بفضـل الله، فلمـا جاء إلى النبـي ﷺ، قـال لـه: يـا رسـول الله من أحـب النـاس إليك؟

فقال له: عائشة.

فقال عمرو بن العاص: ومن الرجال؟

فقال النبيُّ ﷺ: أبوها

قال: ثم مَنْ؟

قال: عمر بن الخطاب.

- ولماذا سأله عمرو بن العاص هذا السؤال؟
- يـا بُنـي، كنـا نتسـابق علـى مـكان لنـا في قلـب النبـيِّ ﷺ، وقـد عاد عمـرو بن العـاص منتصراً، فأراد أن يُسـعد نفسـه ويغتنـم هـذه الفرصـة السـانحة، ليقـول لـه أنـتَ. ولكـنَّ

النبـيَّ ﷺ علـى حبـه لنا جميعـاً، إلا أنـه قال عائشـة لأنه لا يُحابـي ولـو كان عمرو بن العـاص صاحب النصـر المظفّر بفضـل اللهِ.

– ولكنه قال ومن الرجال أبوها.

– أجل يا بُني لقد قال.

– فهنيئاً لكَ هذه المكانة في قلب النبيِّ ﷺ.

– بـاركَ اللـه بكَ يـا بُني، وكل المسـلمين لهم فـي قلبه محبة، فقـد خـرجَ يومـاً إلـى المقبـرة، فقـال: السـلام عليكـم دار قـوم مؤمنيـن، وإنا إن شـاء الله بكـم لاحقـون، ووددتُ أني قـد رأيـتُ إخواننا

فقلنا: يا رسول الله ألسنا بإخوانك؟

فقـال: بـل أنتم أصحابـي، وإخوانـي الذي لـم يأتوا بعـد، وأنا فرطهـم علـى الحوض.

فقلنا: يا رسول الله كيف تعرفُ من يأتي من أمتك بعدك؟

فقـال: أرأيتـم لو كان لرجـلٍ خيلٌ نُحـر محجلة في خيـلٍ دُهْمٍ بهم ألا يعـرفُ خيله؟

قلنا: بلى يا رسول الله.

فقـال: فإنهـم يأتـون يـوم القيامـة غُـراً محجلين مـن الوضوء، وأنـا فرطهـم علـى الحوض.

- هل يأذن خليفة رسول الله أن يحدثني عن ظروف تولّيه الخلافة؟
- تلك قصة طويلة يا بُني، بدأت قبل أن يبتليني الله بهذا الأمر!
- وهل تعتبر الخلافة ابتلاءً؟
- كل حياة الإنسان ابتلاء يا بُني، فالإنسان في امتحان منذ لحظة تكليفه حتى لحظة موته. والله ينظرُ ما يفعلُ عبده في هذا الامتحان، ينجح أم يرسب، ومخطئ من يظنُّ، أن الابتلاء بما يحسبه الإنسان شراً أهون مما يحسبه خيراً.
- وكيف ذلك يا خليفة رسول الله؟
- تقصد كيف يكون الإنسان طوال عمره في امتحان؟ أم عن أن الابتلاء بما يحسبه شراً أهون من الابتلاء بما يحسبه خيراً؟
- كلاهما.
- حسناً سأُخبرك، كل لحظة من لحظات عمر الإنسان هي امتحان، عندما يسيرُ في الطريق فهو في امتحان هل يغضُّ بصره أم يطلق له العنان؟ هل يسلّم على الناس

ويبتسم لهم أم يسير صلفاً متكبراً كأنه لا يرى أحداً؟ عندما يتزوج هو في امتحان دائم، هل يُحسِن إلى هذه المرأة التي سيسأله الله عنها فيقوم بحقها ويعينها على دينها ودنياها أم يظلمها ويكون هو والدنيا عليها؟ عندما يرزقه الله أولاداً فهو في امتحان هل يربيهم حقَّ التربية، ويعلمهم الأخلاق والإسلام أم يعتقد أن دور الأب فقط في إحضار الطعام والشراب واللباس فقط؟

عندما يُحصِّلُ رزقه فهو في امتحان أيضاً، هل يصدق في بيعه وشرائه أم يغش ويحلف كذباً؟ هل يخدمُ مراجعيه لأن هذا واجبه الذي يتقاضى لأجله راتبه أم يشقُّ على الناس ولا يُيسر أمورهم؟

عندما تكون له عائلة فهو في امتحان، هل يبر أبويه، هل يصل رحمه، هل يحسن إلى إخوته أم يُضيُّع هذا كله؟

عندما يكون له بيت، فقد صار لديه جيران فكيف هو مع جيرانه، جار مأمون الجانب، حسن الأخلاق، يطمئن الناس له، ويأمنونه على دمائهم وأموالهم وأعراضهم أم يندمون على اللحظة التي جاورهم فيها ويتمنون أنها ما كانت ولا رأوه ولا رآهم؟

عندما يأوي إلى فراشه ليلاً فهو في امتحان، هل نوى أن ينام ليلاً طويلاً ولا يهمه فاتته صلاته أم أدركها، أم يحتاط ليستيقظ لصلاة الفجر؟

هكذا هي الدنيا يا بُني امتحان دائم!

- حسناً فهمتُ، فكيف يكون الابتلاء بما يحسبه الإنسان شراً أهون من الابتلاء بما يحسبه خيراً؟

- المصائب تكسرُ الناس يا بُني، وترقق قلوبهم، وعندما ينكسِرُ الإنسان ويرقّ قلبه تجده بفطرته يلجأ إلى الله تعالى، اُنظرْ إلى المرضى كيف لا يكفون عن الالتجاء إلى الله سبحانه، وكيف لا يتوقفون عن الدعاء والتضرع، اُنظرْ إلى الفقراء كيف يسألون الله الستر والبركة في الرزق، فتجد قلوبهم لينة، وأخلاقهم سمحة، اُنظرْ إلى الخائفين في زمن الويلات والحروب كيف اعتصموا بالله وأناخوا مطاياهم ببابه يسألونه الأمن والنجاة، قلما يُبتلى الإنسان بالشر ولا ينجح في الامتحان، أما الابتلاء بالخير فيجعل الإنسان ينسى ويطغى، وقد تجد الغني الشاكر، ولكن قلة الشكر في الأغنياء أكثر، تجدهم يتكبرون، ويحسبون أن ما عندهم قد حصلوه بجهدهم وشطارتهم، تماماً كما قال قارون متباهياً بماله « إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي»!

اُنظرْ إلى قلوب الأصحاء وقارنها بقلوب المرضى تجد أن قلوب المرضى أرق، ذلك أن الإنسان في أوج صحته وقوته يعتقدُ أن الصحة والقوة هما حقه، بينما المريض الذي سُلب القوة والصحة تجده أقرب إلى القوي سبحانه.

اُنظـرْ للآمنيـن مـن الحـروب والفتـن، تجـد أغلبهم فـي غفلة عـن اللـهِ، يعيشـون كل حياتهم للدنيـا، لأنهم يرون المـوت بعيداً فينسـون الاسـتعداد لـه، بينمـا الذيـن يحيط بهـم المـوت من كل جانـب تجدهم أكثـر اسـتعداداً له!

- صدقتَ يا خليفة رسول الله.
- بارك الله بك يا بُني.
- والآن هـل يتكـرّم خليفـة رسـول اللـه أن يحدّثني عـن ظـروف توليـه الخلافـة؟
- لكَ هذا يا بُني، فاسمع.
- كُلّي آذان صاغية لكَ.
- عـاد النبـيُّ ﷺ مـن حجة الـوداع فـي آخر شـهر ذي الحجة مـن السـنة العاشـرة للهجـرة، فأقـام فـي المدينـة مـا تبقـى مـن ذي الحِجـة، ثـم شـهر الله المحـرَّم، ثم في شـهر صَفر بـدأ بتجهيـز الجيـش للخـروج وجعل أسـامة بن زيـد أميراً عليـه وكان يومهـا ابـن ثمانـي عشـر سـنة، فتكلـم بعضهم فـي إمارتـه ولـم يعجبهم الأمـر كون أسـامة مولـى وصغير فـي السـن! فلـم يـرضَ النبـيُّ ﷺ بهـذا الطعن في أسـامة، فصعـد المنبـر وقـال: «إن يطعنوا فـي إمارته فقـد طعنوا في إمـارة أبيه مـن قبل، وأَيمَ اللـه إنه كان خليفـاً للإمارة، وكان مـن أحـبِّ الناس إلـيَّ، وإنَّ ابنه هـذا لمن أحـبَّ الناس إليَّ بعده».

وبينمـا الناس يسـتعدّون للخـروج في جيش أسـامة، إذ مرضَ النبـيُّ ﷺ مرضـاً شـديداً، منعـه مـن الخـروج إلـى الصـلاة ليـؤم الناس.

- فمن كان يؤم الناس في مرضه؟
- لمـا اشـتدَّ علـى النبـي ﷺ المـرض، اسـتأذن زوجاتـه أن يُمَّـرضَ فـي بيـت عائشـة فـأذِنَ لـه، وكان عنـده نفـر مـن أصحابـه يعودونـه، فجاء بـلال ودعـاه إلى الصـلاة، فقال: مُـروا مـن يصلـي بالناس.

فخـرجَ عبـد اللـه بن زمعـة من عنـد النبـي ﷺ، فلقـيَ عمر بن الخطـاب ولـم يجدنـي، فقال له: يا عمـر قُمْ فصلِّ بالنـاس. فتقدم عمـر، فكبَّـر، وقرأ وكان عمـر جهوري الصوت، فسـمع النبيَّ ﷺ صوتـه، فقال: فأين أبـو بكر؟ يأبـى الله ذلك والمسـلمون، فبعثَ إليَّ فصليـتُ بالناس.

فقـال عمـر بعد ذلك لعبـد الله بن زمعـة: ويحكَ مـاذا صنعتَ بـي يـا ابن زمعـة؟ واللهِ مـا ظننتُ حيـن أمرتني إلا أن رسـول الله ﷺ أمـركَ بذلك، ولـولا ذلك ما صليـتُ بالناس.
فقـال لـه: واللهِ ما أمرنـي النبي ﷺ بشـيءٍ، ولكني حيـن لم أرَ أبـا بكـر، رأيتكَ أحقَ مـن حضر بالصـلاة بالناس.
- إذاً رفض النبيُّ ﷺ إمامة عمر للناس؟

- الأمر كما أخبرتك.
- فلماذا لم يُسمِّكَ إذاً؟
- ما ظنَّ أن يتقدَّم أحدٌ غيري، والأمر كما رأيتَ فابن زمعة بحثَ عني أولاً فلما لم يجدني طلب ذلك من عمر.
- فما الذي حدث في الصلوات اللاحقة؟
- لما حضرت الصلاة التالية قال النبيُّ ﷺ: مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس

فقالت عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف/ سريع الحزن والبكاء، وإنه متى يقم مكانكَ غلبه بكاؤه فلم يسمع الناس منه، فلو أمّرتَ عمر؟

فقال: مروا أبا بكر فليُصلِّ بالناس.

فقالت عائشة لحفصة: قولي للنبي ﷺ إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقم مكانكَ غلبه بكاؤه فلم يسمع الناس منه، فلو أمرتَ عمر؟

فلما قالتْ حفصة ذلك له، قال: إنكنَّ صويحبات يوسف! مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس.

فقالوا لي فصليتُ بالناس.

فلما دخلتُ في الصلاة، وجدَ النبيُّ ﷺ في نفسه خفة ونشاطاً، فقام متكئاً على رجلين، حتى وقف في الصف خلفي، فلما سمعتُ حسَّه، أردتُ أن أتأخر ليتقدم مكاني، فأشار إليَّ أن تابع صلاتك، فتابعتها، وبقيتُ طوال مرض النبي ﷺ أصلي بالناس.

- يـا لهـذا الإصـرار عليـكَ يـا خليفـة رسـول اللـه، كـم كنتَ أثيـراً علـى قلبه.

- هذا فضل الله يُؤتيه من يشاء يا بُني.
- فماذا عن يوم وفاة النبي ﷺ؟
- بقيـتُ أصلـي بالنـاس طيلة مـرض النبي ﷺ، حتـى إذا كان يـوم الإثنيـن، الثاني عشـر من شـهر ربيـع الأول من السـنة الحاديـة عشـرة للهجـرة، وقفـتُ لأصلـي بالنـاس صـلاة الفجـر، فكشـفَ النبـيُّ ﷺ سـتر الحُجـرة، وهو قائـم ينظرُ إلينـا، وكأن وجهـه ورقـة مصحـف مـن سـروره لتجمعنـا وعـدم فرقتنـا، وظننـا أنه سـيخرج ليصلي معنا، فقـد بدا لنا أنـه بخيـر، فأشـار إلينـا أن أتموا صلاتكـم، ودخـل حجرته.

وحيـن انتهينـا مـن الصـلاة، ظـنَّ النـاس أن الوجـع ذهـبَ عـن النبـي ﷺ وأنـه قـد شُـفي، فدخلـتُ عليـه ومـا به مـن وجع، ففرحـتُ لهـذا، وقلـتُ لـه: يا نبـيَّ اللـه، إنـي أراك بنعمة مـن الله وفضـل كمـا نحـبُّ، واليـوم يـوم زوجتـي بنـت خارجـة أفآتيها؟

فقال لي: نعم.

فخرجـتُ مـن عنـده إلـى أهلي بمنطقـة يُقـال لها السـنح، فلم تحـن صـلاة الظهر حتـى جاء مـن يخبرنـي أن النبـي ﷺ قد لحق بالرفيـق الأعلى.

- ﷺ أشـهدُ أن قـد بلَّغ الرسـالة وأدى الأمانـة، ونصح الأمة، وجاهـد في اللـه حقَّ جهـاده حتى آتـاه اليقين.
- وأنا على ذلك من الشاهدين.
- فحدثني عمَّا كان منك يوم وفاة النبي ﷺ؟
- اضطـرب المسـلمون يومهـا اضطرابـاً شـديداً، كانـوا فـي المسـجد حيـارى، منهـم مـن أصابته الدهشـة فكأنـه انعقد لسـانه، ومنهـم من لـم تعد قدمـاه تحملاه، ومنهـم من نفى عنـه احتمالية الموت جملـةً وتفصيلاً! وإنهـا واللهِ لمصيبة مـا اُبتلى المسـلمون بمثلها أبـد الدهر ويكفـي أن النبي ﷺ قـال: «إذا أصـاب أحدكم مصيبـة فليتذكر مصابـه بي، فإنها أعظـم المصائب»!

وكان مـن الذيـن أنكـروا موتـه عمـر بن الخطـاب حيث قـام في المسـجد فقـال: إنَّ رجالاً مـن المنافقين يزعمون أن رسـول الله ﷺ قـد مـات. وإنـه واللـهِ مـا مـات، ولكنـه ذهـبَ إلـى ربـه كمـا ذهب موسـى بـن عمـران، وقد غاب عـن قومه أربعيـن ليلةً ثم رجـع إليهم بعـد أن قيـل قـد مـات! واللـهِ ليرجعـنَّ رسـول اللـه ﷺ كمـا رجـع موسـى، وليقطعـنَّ أيـدي رجـال وأرجلهم زعمـوا أنه قـد مات.

ودخلتُ المسـجد وعمـر على هـذه الحال، فلم أكلمـه، وإنما دخلـتُ إلـى حجـرة ابنتـي عائشـة حيـث النبـي ﷺ مسـجًّى عليه ثيـاب يمانية، فكشـفتُ عـن وجهه، وقبَّلتـه ثم قلتُ لـه: بأبي أنت

وأمـي مـا أطيبـكَ حيـاً وميتـاً، أمـا الموتة التـي كتبهـا اللـهُ عليكَ فقـد ذقتهـا ثم لـن يصيبك بعدهـا موتـة أبداً.

ثـم رددتُ الغطـاء عليه، وخرجـتُ إلى المسـجد وعمر ما زال يكلـم الناس. فقلـتُ له: على رِسـلك يا عمر. فأبـى إلا أن يتكلم، فلما رأيته لا يسـكتُ ولا يسـمعُ، تركتـه، وأقبلتُ أريـدُ أن أحدِّثَ النـاس، فتركـوا عمـر بن الخطـاب وأقبلـوا علـيَّ، فحمـدتُ الله وأثنيـتُ عليـه ثـم قلـتُ: أيهـا النـاس مـن كان يعبـدُ محمـداً فإن محمـداً قـد مـات، ومـن كان يعبـدُ الله فـإنَّ الله حـيٌّ لا يموت.

ثـم قـرأتُ قـول اللـه تعالـى ﴿وَمَـا مُحَمَّـدٌ إِلا رَسُـولٌ قَـدْ خَلَـتْ مِـنْ قَبْلِهِ الرُّسُـلُ أَفَـإِنْ مَـاتَ أَوْ قُتِـلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَـى أَعْقَابِكُمْ وَمَـنْ يَنْقَلِـبْ عَلَـى عَقِبَيْـهِ فَلَـنْ يَضُـرَّ اللَّـهَ شَـيْئًا وَسَـيَجْزِي اللَّـهُ الشَّـاكِرِينَ﴾.

فلما سمع الناس قولي علموا يقيناً أن النبيَّ ﷺ قد مات.

- فمـاذا عنيـتَ بقولـك: أمـا الموتـة التـي كتبهـا اللـه عليـكَ فقـد ذقتهـا ثـم لن يصيبـك بعدهـا موتة أبـداً؟ فهـل يموت الإنسـان مرتين؟
- نعـم يمـوتُ الإنسـان مرتيـن، مـرةً إذا مـات كمـا يمـوت النـاس، ومـرةً ثانيـة إذا ماتـت أفـكاره التي كان ينـادي بها، ودعوتـه التـي كان يدعـو إليهـا، وهـذا بالضبـط مـا عنيتـه

فإنــي لا أســتطيع أن أرد عنــه الموتــة الأولــى، ولا أردهــا عــن نفســي. فــكل نفــس ذائقــة المــوت نهايــة المطــاف، أمــا شــرعه ودينــه وســنته فلن تمــوت أبــداً، لقد عزمــتُ أن أحمــل لــواءه، وأبلــغ ســنته، وأمــوت فــي ســبيل شــرعه.

– مــا أعظمــكَ ومــا أفقهــكَ، تؤمــن أن الدين مســؤولية وليس مجــرد اعتقاد!

– هــو واللــهِ كذلــك، فهــذا الديــن جــاء للبشــرية حتــى قيــام الســاعة، وليــس حتــى وفــاة النبــي ﷺ، متــى عرفنــا هــذه الحقيقــة ووعيناهــا في عقولنــا وقلوبنا، عرفنا أن كل مســلم هــو نائب عن النبــي ﷺ، يُبلِّغ شــرعه، ويلتزم ســنته، ويقدم الغالــي والنفيــس ليبقــى هــذا الدين.

– مــا أروعَ خطابــكَ، بهــذه الكلمات القلائــل أخرجتَ الناس مــن ذهولهــم وحيرتهــم، وأرجعتهم إلــى الفهــم الصحيح، بــأن اللــه هــو الحــي الــذي لا يمــوت، وأنــه وحــده الــذي يســتحقُّ العبــادة، وأن الإســلام بــاقٍ أبــد الدهــر رغــم وفاة النبي ﷺ!

– هذا مما فتحه الله عليَّ يومها يا بُني.

– فكيــف جــاءكَ هــذا الثبــات، وأنــتَ أحــق النــاس أن تنهــار أمــام هــذا الحــدث الجلــل، فأنــتَ أرقهــم قلبــاً، وأكثرهــم صلــةً وصداقــةً ومحبــة للنبــي ﷺ؟

- اللـهُ وحـده هـو مـن يُنـزل السـكينة علـى عبـاده فـي هـذه المواقـف، وقـد مـنَّ اللـه سـبحانه علـيَّ بسـكينةٍ وجدتهـا فـي قلبـي، وصواباً في لسـاني، واسـتخدمني ليكـون قولي فصـلاً، وكلامـي فيصلاً
- فكيف بايعكَ الناس بالخلافة؟
- لمـا أيقـن المسـلمون بوفـاة النبـي ﷺ اجتمـع الأنصار في سـقيفة بني سـاعدة قبل أن ندفـنَ النبـي ﷺ وتداولوا الأمر بينهـم فـي اختيـار من يلـي الخلافة مـن بعده.

وعقـدَ الأنصـارُ العـزمَ علـى مبايعـة سـعد بـن عبـادة، ولمـا بلغنـا اجتماعهـم والغـرض الذي لأجلـه كان هـذا الإجتماع، قال المهاجـرون: انطلقـوا بنـا نـرى مـا يصنـعُ إخوتنـا مـن الأنصار.

فانطلقنـا حتـى أتيناهـم فـي سـقيفة بنـي سـاعدة، فـإذا رجـل قاعـد مزمـل بينهـم.

فقلنا: من هذا؟

قالوا: هذا سعد بن عبادة.

فقلنا: ما باله هكذا؟

قالوا: مريض يوعك.

فلمـا جلسـنا، قـام خطيـبٌ مـن الأنصـار، فحمـد اللـه وأثنـى عليـه ثـم قـال: نحن أنصـار اللـه، وكتيبـة الإسـلام، وأنتم معشـر المهاجريـن نفـر قليـل، والأمـر إنمـا يجـب أن يكـون إلينا.

فقـام عمـر بـن الخطـاب يريـدُ أن يتكلم، فأشـرتُ إليـه أن دع الأمـر إليَّ.

فقمـتُ وقلـتُ: يـا معشـر الأنصـار مـا ذكرتـم فيكم مـن خَير فأنتـم لـه أهل، ولـن يعرف هـذا الأمر إلا لهـذا الحي مـن قريش، هـم أوسـط العرب نسـباً وداراً، وقـد رضيتُ لكم هذيـن الرجلين فبايعـوا أيهمـا شـئتم، وأخـذتُ بيـد عمـر بـن الخطـاب ويـد أبي عبيـدة بـن الجراح.

فقـال عمـر: واللـه أن أُقـدّم فتضـرب عنقـي أحب إلـيَّ من أن أتأمـر علـى قـوم فيهم أبـو بكر!

فقال رجل من الأنصار: منا أمير ومنكم أمير.

فقـال عمـر: هـذا واللـهِ أول الوهـن، وإن هـذا الأمـر لا ينعقد إلا لرجـل واحـد، وهـذا أبو بكـر صديق رسـول اللـه ﷺ، ورفيق هجرتـه وثانـي اثنيـن إذ همـا فـي الغـار، وقـد أمـره النبـي ﷺ أن يصلـي بالنـاس حيـن مـرض فأيكم تطيـبُ نفسـه أن يتقـدم عليه.

فسكتوا ولم يقولوا شيئاً.

فقلتُ: يا عمر اُبسُطْ يدكَ أُبايعك.

فقال لي عمر: أنتَ أفضل مني.

فقلتُ: أنتَ أقوى مني.

فقال: فإن قوتي لكَ مع فضلك.

ثـم وثـب فأخـذ بيـدي فبايعنـي، فقـام كل مـن فـي السـقيفة فبايعونـي...

- بهذه البيعة إذاً صرتَ خليفة للمسلمين؟
- هذه كانت البيعة الخاصة، ثم تلاها البيعة العامة.
- وما هي البيعة العامة؟
- بيعة من تبقى من الصحابة، كانت بيعة السقيفة يوم الإثنين يوم وفاة النبي ﷺ. ولما كان يوم الغد جلستُ عند المنبر، فقام عمر قبلي فقال: أيها الناس قد كنتُ قلتُ لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيي، وما وجدتها في كتاب الله عزَّ وجل، ولا كانت عهداً عهده إليَّ النبي ﷺ ولكني قد كنتُ أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا، وإنَّ الله قد أبقى فيكم كتابه الذي فيه هدى به رسوله، فإن اعتصمتم به هداكم لما كان هداه له، وإنَّ الله جمعَ أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار وأولى الناس بأموركم فقوموا فبايعوا.

فقام الناس فبايعوني...

- رحم الله عمر بن الخطاب واللهِ إنه لنعم الرجل.
- أي والله إنه لنعم الرجل القوي الأمين.
- فهل تكلمتَ يومها بعد كلام عمر؟
- أجل يا بُني، تكلمتُ بعد أن فرغ الناس من مبايعتي.
- فماذا قلت؟
- حمدتُ الله وأثنيتُ عليه، ثم قلتُ: أيها الناس إني قد

وُليتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوموني. الصَّدقة أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أردَّ عليه حقَّه إن شاء الله. والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.

أيها الناس لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، لا تشيعُ الفاحشة في قوم قط إلا عمَّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإن عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

- بالعودة إلى سقيفة بني ساعدة يا خليفة رسول الله، لماذا أراد الأنصار مبايعة سعد بن عبادة؟
- لقد علم الأنصار بحسن فهمهم أنه لا بد أن يكون للناس خليفة وحاكم، فلا تستقيم دولة إلا به، وعندما توفي رسول الله ﷺ سارعوا يحضرون لبيعة سعد بن عبادة. أما لماذا سعد بن عبادة فلأنه زعيمهم، فقد كان سعد بن عبادة وسعد بن معاذ زعيما الأوس والخزرج، وأما قد استشهد سعد بن معاذ، فمن البديهي أن تقع أعينهم على سعد بن عبادة.
- أعني لماذا أرادوا أن يقطعوا بالأمر دونكم؟
- إن كانوا أحسنوا في فهم أنه لا بُدَّ أن يكون للناس إمام، وعملوا من فورهم لهذا الأمر، فإنهم قد أخطأوا إذ

أرادوا أن يقطعوا بالأمر دوننا، هذا أولاً، وثانياً أخطأوا حين ظنوا لأن المدينة مدينتهم، وهم الأكثرية أن يكون الخليفة منهم، وما هكذا تنعقد البيعة، لا صلة قربى، ولا عن مكان وجغرافيا، وإنما تكون للأصلح والأكفأ بغض النظر عن اعتبارات المكان والعرق.

- ولكنك كنتَ ليناً معهم وأنت تردهم عن هذا الخطأ؟
- يا بُني هؤلاء إخواننا، استقبلونا في مدينتهم، وقاسمونا بيوتهم وخبزهم، ودافعوا عنا، وحاربوا لأجل هذا الدين العربَ قاطبة وما يُنكر فضلهم إلا جاحد. ثم إن كل إنسان ينظر إلى الأمر من زاويته، وقد يصيب وقد يُخطئ، ليس المهم كيف ينظر الإنسان إلى الأمر، المهم أن لا يُكابر ويعاند ويبقى على رأيه الخاطئ إذا ما تبيَّن له خطأ رأيه.
- صدقتَ يا خليفة رسول الله، ولكني استغربتُ من زهدكَ في الخلافة، فأنتَ لم تخبر الأنصار بعدم أحقيتهم بها لتأخذها لنفسك، على العكس أردتَ أن تُرجع الحقَّ إلى قريش في أن يكون الخليفة منهم لأسباب منطقية ذكرتها، ثم بعد ذلك طلبتَ من عمر أن يمدَّ يده لتبايعه ولكنه رفض.
- يا بُني إن الأمر هذا مسؤولية، ويكفي المرءُ خوفاً أنه سيُسأل عن أعماله وعن أهل بيته، فكيف به إذا ما صار مسؤولاً عن الناس جميعاً، وسيقف يوم القيامة بين

يـدي الله ليسـألهم عنه، أتحسـبُ أن الأمر تشـريف وأُبهة؟ لا واللـه إنـه تكليـف ومسـؤولية، وقـد أردتُ أن ألقيهـا في رقبـة عمر بـن الخطاب لأنـي كنـتُ أراه أقوى منـي عليها، ولكنـه رفـضَ، وواللـهِ لـو قبلها كنـتُ أول مـن بايعه.

- وانظُـرْ لحـب عمـر بـن الخطـاب لك يـا خليفة رسـول الله حيـن قـال لـكَ: لئن أتقـدم فتضـرب عنقـي أحب إلـيَّ من أن أتأمـر علـى قـوم فيهم أبـو بكر.
- ومـن كعمـر، ذلـك الصاحـب الأميـن، والخـل الوفـي، والنقـي الـذي لا تنسـيه قوتـه أن يرجـع إلـى الحـق.

- مـا أعرفـه أن النبـيَّ ﷺ لـم يُسـمِّ أحـداً ليكون خليفـة بعده ولكنـه تـركَ إشـارات كثيـرة تـدل علـى أنـه كان يريـدكَ أن تكـون الخليفـة بعـده، فهـل لـكَ أن تحدثنـي عـن هـذه الإشـارات؟
- لـكَ هـذا يـا بُنـي، ولكـن قبـل أن أحدثـك عن الإشـارات الخفيـة التـي تتضمـن معنـى أن النبي ﷺ قـد أراد أن يكتب لـي وصيتـه بالأمر. ففـي مرضه الـذي مات فيه قـال لابنتي عائشـة: ادعـي لـي أباكِ وأخـاكِ، حتـى أكتـبَ كتابـاً، فإني أخـاف أن يتمنـى متمـنٍ، ويقـول قائـل: أنـا أولـى، ويأبـى اللـه والمؤمنـون إلا أبـا بكر.
- فلماذا لم يكتب إذاً؟

- اشـتدَّ عليـه المـرض بعدهـا، ومـا كانـت عائشـة ولا أحـد يحسـبُ أن النبـي ﷺ سـيموت فـي مرضـه هـذا، فلـم ترد أن تشـق عليه فـي مرضـه، وأرادت أن تتريث حتى يسـتعيد عافيتـه، ولكـن قدر الله أمضـى، لتكون لي الخلافـة بالبيعة والإجمـاع وليـس بالوصية.
- فأيُهما كان أحبُّ إليك؟
- الأحـبُ إلـيَّ مـا اختـاره الله لي، فلـو أراد اللـه أن تكون لي الخلافـة بالوصيـة كانـت أحـب إلـيَّ مـن أن تكـون بالبيعة والإجمـاع اللذيـن لا بـد منهمـا بعـد الوصيـة أساسـاً، أمـا وقد شـاء اللـه أن تكون الخلافـة بيعة وإجماعـاً فإني أحبُّ مـا ارتضـاه الله سـبحانه لي.
- يا لقلبك وإيمانك يا أبا بكر!
- يـا بُنـي إن الإيمـان كلـه فـي الرضـا، فمـاذا يبقـى مـن إيمـان المـرء لـو لـم يـرضَ علـى قضـاء اللـه وقـدره خيـراً كان أم شـراً.
- فماذا عن الإشارات الخفية يا خليفة رسول الله؟
- هـي كثيـرة وأولهـا أنـه عهِـدَ إلـيَّ أن أُصلي بالمسـلمين في مرضـه، وعندمـا طلبـوا مـن عمـر بـن الخطـاب وأجـاب، رفـضَ النبـيُّ ﷺ الأمـر رفضـاً قاطعـاً. وعندمـا طلـب من عائشـة أن تطلـب منـي أن أصلـي بالنـاس. وناقشـته فـي الأمـر، فرفـضَ، ثـم اسـتعانتْ بحفصـة لتناقشـه أيضـاً فرفـضَ، دلَّ هـذا دلالـة لا شـك فيها أنـه أرادنـي أن أخلفه فـي المسـلمين.

– فلماذا لم ينتبه الأنصار إلى هذا الأمر؟

– يا بُني عندما تنزل الخطوب بالناس فإنهم ينشغلون بها، والمصائب ومدلهمات الأمور تجعل الناس ينسون بعض ما كان من شأنهم أن يتذكروه وفي الأمر سعة.

– حسناً فهمتُ، فماذا عن باقي الإشارات؟

– أتتْ امرأة إلى النبي ﷺ تطلبُ أُعطية ولم يكن عنده مال، فأمرها أن ترجع إليه، فقالتْ له: إن جئتُ ولم أجدك؟ كأنها تُريدُ أن تقول فربما عُدتُ ولم أجدك على قيد الحياة.

فقال لها: إن لم تجديني فَاتي أبا بكر.

– يا لها من إشارة فهل هناك غيرها؟

– أجل هناك غيرها، كنا يوماً جلوساً عند النبيِّ ﷺ فقال لنا: إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم، فاقتدوا بالذين من بعدي، وأشارَ إليَّ وإلى عمر بن الخطاب، وتمسكوا بعهد عمَّار، وما حدثكم ابن مسعود فصدِّقوه.

– وهذه إشارة جميلة أيضاً، فهل هناك غيرها؟

– هناك غيرها أيضاً.

– فحدثني عنها.

– كنا جلوساً مع النبيَّ ﷺ في المسجد إذ قال يُحِّدثنا عن رؤيا رآها: بينما أنا نائم رأيتُ أني أنزعُ على حوضي أسقي الناس، فجاءني أبو بكر فأخذ الدلو من يدي ليريحني، فنزع الدلوين وفي نزعه ضعف والله يغفر

لـه، فجـاء ابـن الخطـاب فأخذ منـه، فلـم أرَ نزع رجـلٍ قط أقـوى منـه حتـى تولـى النـاس، والحـوض مـلآن يتفجر.

- هـذه أيضاً إشـارة لـكَ أنكَ سـتخلفه، والدلو كمـا يظهر من الرؤيـا هـو الخلافـة، والحكـم، وأخـذك الدلـو منـه يعنـي أخـذكَ الحكـم والمنصب، وأخذ عمـر الدلو بعـدكَ. أيضاً يدل أنـه سـيكون خليفتكَ.
- هذا صحيح يا بُني، وهنا تكمن الإشارة بالخلافة.
- فلمـاذا قـال النبـي ﷺ أنـك نزعـتَ دلويـن، وفـي نزعـكَ ضعـف، بينمـا كان نـزع عمر للدلالـة قوياً شـديداً حتى عمَّ المـاءُ الـذي نزعـه النـاس جميعـاً وامتـلأ الحوض؟
- وهـذه أيضـاً إشـارة يـا بُنـي، فالضعـف فـي نزعـي للمـاء دلالـة علـى قصر مـدة حكمـي، وعجلـة موتي، وانشـغالي بحـروب الردة والفتـن الداخلية عند الفتوحـات الخارجية، وقـد وطَّـأتُ الأمر لعمـر، فجاء بعـدي ليجد جبهـة داخلية مسـتقرة سـاعدته فـي أن يتجـه للفتوحـات الخارجية.
- تأويل رهيب يا خليفة رسول الله.
- بارك الله بك يا بُني.

- ولكن عندي سؤال لو أذنتَ لي؟
- تفضَّل يا بُني.
- مـا دامـت الإشـارات كثيـرة فلمـاذا غابـتْ عن النـاس أول الأمر؟

- لـم تكن هـذه الحوادث فـي مجلس واحد، ومـا كان جميع الناس يحضـرون مجلـس النبـي ﷺ كل الوقـت، فعلـى سـبيل المثـال كان بيتـي فـي السَّـرح وغبـتُ عـن بعـض مجالـس النبـي ﷺ، فقـال أشـياءً لـم أشـهدها، وكان عمـر بـن الخطـاب يتنـاوب هـو وأخ له علـى العمـل والجلوس فـي مجلـس النبـي ﷺ، بحيـثُ يعمـلُ عمـر يومـاً وينـزل أخـاه إلـى مجلـس النبـي ﷺ، فـإذا كان المسـاء أخبـره بما حصـل في مجلـس النبي ﷺ، فـإذا كان الغد جـاء عمر إلى مجلـس النبـي ﷺ وسـمع وشـاهد، بينمـا يبقـى أخـوه في العمل وهكـذا...

وأيضـاً الأنصـار كانـت لهـم ضيـاع وبسـاتين يعملـون علـى زراعتهـا، وقطـف ثمرهـا، فـلا بـد أن يفوتهـم بعـض مـا يـدور فـي مجلـس النبـي ﷺ. والمهاجـرون وإن لـم يكـن لهـم ضِيـاع وبسـاتين مقارنـة بأهـل المدينـة فإنهم كانـوا يعملون في السـوق، وهـذا العمـل يأخـذ منهـم وقتـاً، ويشـغلهم عـن حضـور بعـض مجالـس النبـي ﷺ. لهـذا لا يوجـد أحـد أحـاط بـكل شـيء.

- حسناً فهمتُ يا خليفة رسول الله.
- فهل عندكَ شيء بعد تسأل عنه؟
- فـي هـذا المجـال لا، ولكن هل يـأذن خليفة رسـول الله أن ننتقـل إلى مجـال آخر؟

- لكَ هذا يا بُني، فسلْ عمَّا بدا لكَ.
- أردتُ أن أسألك عن خطبتك يوم توليت الخلافة.
- فعن أي شيء منها تريدُ أن تسأل؟
- ألا ترى أنها قصيرة نسبياً، أعني أنها أول بيان سياسي من الخليفة الجديد إلى الأمة، وقد ألفنا في أيامنا أن عريف حفلٍ من احتفالاتنا اليوم إذا أراد أن يمهِّد للمتكلم الذي سيأتي بعده لا يكاد ينتهي، وإذا صعد المتكلم المنبرُ لا تطيب نفسه المغادرة؟

- العبرة ليست في طول الخطبة ولا قصرها وإنما العبرة في أن تؤدي الغرض منها، وتقوم بإيصال الأفكار واضحة جلية، على أن من عادة العرب أن لا تطيل في الخطبة، لأن البلاغة في الإيجاز هذا أولاً، وثانياً إن الكلام يُنسي بعضه بعضاً فإطالة الخطيب ولفه ودورانه يجعل السامع ينسى بعضاً مما قال آنفاً، بعكس إذا كان الكلام قليلاً ومرتبطاً بالفكرة فإنه يرسخ في ذهنه، والأهم من ذلك قول النبي ﷺ: «قصر خطبة الرجل وطول صلاته مِئِنَّة من فقهه».
- فهمتُ يا خليفة رسول الله، ولكن أردتُ أن أسأل أليس من المفترض أن تكون الخطبة الأولى أو البيان السياسي الأول لكَ إيضاحاً لمعالم سياستك في الحكم؟
- بلى، هكذا كانت.

- فهل يأذن خليفة رسول الله أن يحدثني عن ملامح سياسته في الحكم التي ضمنها في بيانه السياسي الأول؟
- لكَ هذا يا بُني، فاسمعْ.
- إني مُصغٍ فتفضّل.

- عندما قلتُ: أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإن عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. فإني بهذا أخبر الناس بمصادر التشريع في الدولة التي سأحكمها. وهما كتاب الله تعالى وسنة رسوله. فالقرآن هو المصدر الأول من مصادر التشريع الذي يحتوي الأحكام الشرعية التي تُنظم كل مناحي الحياة. أما السنة المطهرة فهي المصدر الثاني من مصادر التشريع الذي يستمد منه الدستور الإسلامي رافدين أساسيين. الأول الأحكام التي لم ترد في القرآن وجاءت بها السنة المطهرة. فبعض أحكام القرآن جاءت مجملة فجاءت السنة النبوية لتفصل هذه الأحكام سواءً في العبادات أو المعاملات، فالله تعالى مثلاً أمرنا في القرآن الكريم بإقامة الصلاة، ولكنه لم يخبرنا بعدد الصلوات، ولا أوقاتها، ولا ركعاتها، ولا ما الذي نقوله فيها، فجاءت السنة النبوية شارحة ومفصلة.
- شرح جميل ومفصّل يا خليفة رسول الله، فماذا قلتَ في خطبتكَ عن ملامح سياستك غير مصادر التشريع؟

- عندما قلتُ: فإن أحسنتُ فأعينوني وإن أسأتُ فقوموني. فإني أرسي مبدأ مراقبة عمل الحاكم ومحاسبته. أخبرتهم أني إنسان، وأن الخطأ مني وارد، فقد مضى زمن الأنبياء، فلا عصمة لأحد من الناس، وأنا واحد منهم يصدر مني الخطأ أيضاً. كنتُ أنظر إلى الأمة على أنها شريك في الحكم، لا مجرد تابع منقاد، ففي نهاية المطاف أنا موظف عند الناس أرعى شؤونهم، وأدير أمورهم، لا هم موظفون عندي. فلهم عليَّ حقوق ولي عليهم واجبات، ومن واجبي عليهم أن يطيعوني بالمعروف، ولا آكل شيئاً من مالهم دون وجه حق، فإن أمرتُ بالمعروف كان واجباً عليهم طاعتي، وإن أخطأتُ كان واجباً عليهم أن ينصحوا لي ويقوموني. ألا ترى أنه إذا استأجر ثري عاملاً على بستان له فرآه قد أخطأ في أمر من أمور عمله، أرشده إلى الصواب، والأمة هي ذاك الثري صاحب البستان وأنا ذاك العامل الذي استأجروه ليقوم بإصلاحه.
- يا لهذا الفقه السياسي منك يا خليفة رسول الله، ويا لاحترام الأمة.
- يا بُني هذا ليس فقهاً شخصياً، وإنه شرع الله الذي أعطى الحاكم حرمة وتبجيلاً ما دام يأمر الناس بالمعروف، وأعطى الأمة حق المحاسبة للحاكم إن هو أخطأ في بعض أمور الحكم.

- فمـاذا قلـتَ فـي خطبتـك أيضـاً وترى أنـه يرسـم الملامح السياسـية لعهدك؟
- عندمـا قلـتُ الضعيـف فيكم قوي عنـدي حتـى أُرجع عليه حقـه إن شـاء اللـه، والقوي فيكـم ضعيف حتـى آخذ الحق منه إن شـاء اللـه. فقد كنتُ أرسـي مبـدأ العدل والمسـاواة بيـن الناس.

فالنـاس أمـام القانـون سـواء، فالضعيـف صاحـب الحق قوي بالدولـة التـي تسـخر كل طاقاتهـا وإمكاناتهـا لتعيـد إليـه حقـه، والقـوي الظالـم ضعيـف أمـام هيبـة الدولـة المسـتنفرة بـكل أجهزتهـا لتقتـص منه، وتأخـذ حقوق النـاس التي غصبهـا بقوته.

- فأي شيء غير هذا المبدأ الجميل في خطبتك؟
- عندمـا قلـتُ: الصـدق أمانـة والكـذب خيانـة. فقـد كنـتُ أرسـي مبـدأ الصـدق فـي التعامـل بيـن الحاكـم والرعيـة، فلسـتُ أدبـر أمـراً وأخبـر الرعيـة عكسـه. ولا أريـد مـن الرعيـة أن تهـز رأسـها بالموافقـة أمامـي وبالمعارضة وراء ظهـري. أردتُ أن أُرسـي مبـدأ الثقـة. وأعـزز الاحتـرام المتبـادل بـدل الخـوف والشـك والريبـة، فلسـتُ أقول إلا صدقـاً، ولسـتُ أفعـلُ غير مـا أقـول، بالمقابـل لا أريد من الرعيـة أكثـر مـن أن تحدثنـي بشـكوكها، وتفاتحنـي بمـا أشـكل عليهـا مـن قراراتـي، فهـذا من شـأنه أن ينـي جبهة داخليـة قويـة لا يمكـن هزيمتهـا، فالدولـة التي تنهـار أمام

الأعـداء هـي فـي الحقيقـة دولـة منهـارة مـن الداخـل لـم يفعـل الأعـداء أكثـر مـن إكمـال المشـهد الأخيـر فـي هذا الإنهيـار، القـلاع الحصينـة لا تسـقط إلا مـن الداخل، وقد أردتُ دولـة حصينـة متماسـكة مـن الداخل، تليـق بالمهام الجسـام التـي عليهـا أن تقـوم بهـا وأهمهـا تعبيـد النـاس بر بهم .

- يا للفقه السياسي الراسخ يا خليفة رسول الله.
- بارك الله بك يا بُني.

- فمـاذا تضمّنت خطبتـك بعد من خطوط عريضة لسياسـتك في الحكم؟
- عندمـا قلـتُ: مـا تـرك قـوم الجهـاد ف ي سـبيل اللـه إلا خذلهـم اللـه بالـذل، فإنـي أُعلـنُ أن هويـة هـذه الأمـة هي العـزة والكرامـة، وأننـا نأخـذ حقنـا بأيدينـا ولا نسـتجديه مـن الآخريـن. نحـن أمـة لا تظلـم ولا تعتـدي، وإنمـا ننـادي بالتراحـم والتعايش، ولكـن تعايش القـوي لا تأقلم الضعيـف الـذي يحسـبه مـن استمرأ الـذل وهانـت عليـه كرامتـه أنـه تعايـش.

- صدقتَ يا خليفة رسول الله، فماذا تضمنتْ خطبتك بعد؟
- عندمـا قلـتُ: ولا تشـيع الفاحشـة فـي قـوم إلا عمَّهـم الله بالبـلاء. فقـد كنـتُ أعلـن الحـرب علـى رزايـا الأخـلاق،

وعلى الزنا والربى والفجور، فنحن أمة لها رسالة، هذه الرسالة النقية التي جاءت خاتمة الرسالات، ونبيها ﷺ خاتم الرسل، إنما هي للناس كافة، وإن بدأتْ فينا نحن وأُمرنا بتبليغها للناس كافة، فكل مسلم هو نائب عن النبي ﷺ، ومأمور بالتبليغ عنه بقدر استطاعته، وبحجم إمكاناته وقدراته، فلا بد من إصلاح أفراد الأمة ليكونوا جديرين بأن يكونوا نواباً للنبي ﷺ. وعندما يصلح الأفراد، تصلح الأمة. فما الأمة إلا مجموع أفرادها. وواجب الدولة أن تزيل كل العوائق التي تحول بين الناس وبين صلاح دينهم. فكيف ستعد مجاهداً في سبيل الله في مجتمع غارق بالفاحشة والزنا والفجور. وكيف ستحمل الرحمة والعدل للناس في مجتمع لا يرحم ولا يعدل بين أفراده.

- يا لكَ من عبقري يا خليفة رسول الله.
- بارك الله بك يا بُني، والآن أخبرني بعد أن انتهينا من خطبتي يوم توليتُ الخلافة، هل عندك شيء تسأل عنه؟
- أردتُ أن أسأل عن أول قرار سياسي كبير اتخذته بعد توليك الخلافة بأيام وأعني به إنفاد جيش أسامة.

- كانت الجزيرة العربية تجاور دولتين قويتين هما فارس والروم، وكان العرب في العراق يتبعون الفرس، والعرب

في الشـام وشـمال الجزيـرة يتبعون للـروم. ولأن النبي ﷺ جـاء للنـاس كافـة، ولدعـوة البشـر جميعاً إلـى عبـادة الله الواحـد الأحـد، فقد راسـل كسـرى عظيم فـارس، وهرقل عظيـم الـروم ودعاهما إلى الإسـلام لكنهما اسـتكبرا وآثرا الحيـاة الدنيا علـى الآخرة.

وكان العـرب فـي الجزيـرة العربيـة قبل الإسـلام ينظـرون إلى فـارس والـروم نظرة هيبة لمـا لهما من قـوة عسـكرية وإقتصادية، وتقـدم فـي الحضـارة والعمـران، لهـذا كانـت خطـة النبـي ﷺ أن يكسـر شـيئاً مـن هـذه الهيبـة فـي قلـوب العـرب تجـاه فارس والـروم ممهـداً بذلـك للمعـارك الكبـرى التي جـاءت فيمـا بعد.

ففـي العـام الثامن من الهجرة الشـريفة أرسـل النبي ﷺ جيشـاً إلى شـمال الجزيـرة العربيـة، واقتتل هذا الجيش مـع جيش الروم ومـن معهـم مـن نصـارى العـرب في غـزوة مؤتـة التـي أدت إلى استشـهاد قـادة الجيش الثلاثـة الذين عينهـم النبـي ﷺ تباعاً، زيد بـن حارثـة وجعفـر بـن أبـي طالـب وعبدالله بـن رواحـة، إلى أن تولـى القيادة خالـد بن الوليد الذي رسـم خطة انسـحاب محكمة وعـاد بالجيـش إلـى المدينـة، ولـم يعجـب النـاس فـي المدينـة هـذا الانسـحاب، فقالـوا للمجاهديـن العائديـن أنتـم الفُـرَّار أي الهاربون.

فقال النبي ﷺ: بل هم الكُرَّار أي المهاجمون.

وكانت هذه أول مواجهة مباشرة بيننا وبين الروم. وفي العام التاسع للهجرة النبوية الشريفة خرج النبيُّ ﷺ على رأس الجيش بنا إلى تبوك، ولكننا لم نشتبك مع الروم، ولا مع القبائل التي خضعت لحكمهم. وآثر حكام المناطق التي دخلناها الصلح والجزية. فمكثنا في تبوك عشرين ليلة ثم عدنا إلى المدينة. وكانت هذه ثاني خطوة في كسر هيبة الروم من نفوس العرب.

أما عن جيش أسامة فكنتُ قد أخبرتك أن النبي ﷺ قد جعل أسامة على رأس جيشٍ لقتال الروم، ولكنّه ماتَ ﷺ والجيش معسكر على مشارف المدينة لم يغادرها.

وبقي الجيش مرابطاً مكانه حتى تمّتْ بيعتي، وصرتُ خليفةً للمسلمين، وبعد ثلاثة أيامٍ أصدرتُ أمري إلى أسامة أن يمضي بالجيش إلى حيث أمره النبي ﷺ يوم قال له: سِرْ إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد ولّيتُك هذا الجيش.

فقال أسامة لعمر بن الخطاب: اِرجعْ إلى خليفة رسول الله ﷺ فاستأذنه أن يأذن لي أن أرجع بالناس، فإنَّ معي وجوه الناس، ولا آمن على أبي بكر والناس في المدينة أن يغير عليهم أحدٌ من المشركين.

وقالتْ الأنصار لعمر: وقلْ لأبي بكر إن أبى إلا أن نمضي فأبلغه عنا، واطلبْ إليه أن يولي أمرنا رجلاً أكبر سِناً من أسامة.

- فماذا حدث بعد ذلك؟
- جاء عمر إلـيَّ وقال: يا خليفة رسـول اللـه إن العـرب قد اِرتـدتْ علـى أعقابهـا كفـاراً كمـا قد علمـتَ، وأنـتَ تريدُ أن تُنفـذ جيـش أسـامة؟ وفي جيش أسـامة جماعـة العرب وأبطـال النـاس فلـو حبسـته عنـدكَ لتقوّيـتَ بـه علـى مـن ارتـدَّ مـن هـؤلاء العرب.

فقلـتُ لـه: واللهِ لـو علمتُ أنَّ السِّباع تجر برجلـي إن لم أردَّه مـا رددتـه، ولا حللتُ لـواءً عقده رسـول الله ﷺ!

فقـال لي عمـر: إنَّ الأنصـار أمرونـي أن أبلغكَ، وهـم يطلبون أن تولـي أمرهـم رجلاً أكبر سِـناً من أسـامة.

فوثبـتُ إلـى عمر، وأخـذتُ بلحيتـه وقلتُ لـه: ثكلتـكَ أمكَ، وعدمتـكَ يـا ابن الخطاب، استعمله رسـول اللـه ﷺ وتأمرني أن أنزعه؟!

فعـاد عمر إلـى أسـامة والناس فـي المعسـكر، فقالوا لـه: ماذا صنعتَ؟

فقـال: امضُـوا، ثكلتكـم أمهاتكـم، مـا لقيـتُ في سـبيلكم من خليفـة رسـول الله.

- فماذا حدث بعد ذلك يا خليفة رسول الله؟
- أمـرتُ منادياً أن ينـادي فـي طرقـات المدينـة: ليتـم بعـث أسـامة، ألا لا يبقيـنَّ بالمدينـة أحـد مـن جنـد أسـامة إلا خـرج إلـى عسـكره.

ثـم قمـتُ فـي النـاس خطيبـاً، فحمـدتُ اللـه وأثنيـتُ عليه ثم قلـتُ: يـا أيهـا النـاس إنـي وليتُ هـذا الأمـر وأنـا لـه كاره. واللهِ لـوددتُ لـو أن بعضكـم كفانيـه، وإنمـا أنـا مثلكـم، وإنـي لا أدري لعلكـم سـتكلفوني مـا كان رسـول اللـه ﷺ يطيـق، إن اللـه اصطفـى محمـداً على العالميـن، وعصمه مـن الآفـات، وإنما أنا متّبـع ولسـتُ بمبتـدع ولسـتُ بخيرٍ مـن أحدكـم، فراعونـي، فإن رأيتمونـي اسـتقمتُ فبايعونـي، وإن رأيتمونـي زغـتُ فقومونـي، وإن رسـول اللـه ﷺ قـد قُبـضَ وليـس أحدٌ مـن هذه الأمـة يطلبه بمظلمـة ضربـة سـوطٍ فمـا دونهـا، ألا وإنَّ لـي شـيطاناً يعترينـي، فـإذا أتانـي فاجتنبونـي لا أُؤثـر في أشـعاركم وأبشـاركم.

- وماذا فعلتَ بعد ذلك؟
- بعـد ذلـك ذهبتُ إلى معسـكر جيش أسـامة، وودعتهم وأنا أمشـي، وأسـامة علـى فرسـه، فقـال لـي: يـا خليفة رسـول اللـهِ لتركبـنَّ أو لأنزلِنَّ.

فقلـتُ لـه: واللهِ لا تنـزلُ، وواللـهِ لا أركب، وما علـيَّ أن أُغبِّر قدمـيَّ فـي سـبيل الله سـاعة، فـإن للغازي بـكل خطـوة يخطوها سـبعمئة حسـنة تُكتـب لـه، وسـبعمئة درجـة تُرفـع لـه. ولكن إن رأيـتَ أن تعيننـي بعمـر فافعلْ.

فأذِن لعمر أن يبقى معي في المدينة.

- وهل أوصيتَ الجيش بشيء يا خليفة رسول الله؟
- بالطبع قد فعلتُ.

- فما كانت وصيتك لهم؟
- قلتُ لهم: يا أيها الناس قفوا أوصكم بعشرٍ، فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغُلُّوا، ولا تغدروا، ولا تُمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلا لمأكلةٍ، وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنيةٍ فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيءٍ فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون قوماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً. اندفعوا باسم الله.
- وكم غاب أسامة بجيشه عن المدينة، وما كانت نتيجة المعركة التي خاضها؟
- غاب أسامة عن المدينة أربعين ليلةً، قاتل خلالها وانتصر بفضل الله وعاد إلينا بالغنائم.

- وما كان أثر خروج جيش أسامة على العرب؟
- كان أسامة لا يمرُّ بجيشه على قبيلة كانتْ تُحدِّثُ نفسها بالردة إلا قالوا: لولا أنَّ لهؤلاء قوة ما خرجَ مثل هؤلاء من عندهم، وإنا لندعهم حتى يلقوا الروم.

فلما لقي جيش أسامة الروم، وقاتلوهم وانتصروا عليهم، ثبتَ أولئك على دينهم.

- والآن هل يأذن خليفة رسول الله أن أسأله بعض ما حدثني عنه؟
- تفضل يا بُني سلْ ما بدا لك.
- في كلام عمر بن الخطاب وجهة نظر حول إبقاء جيش أسامة في المدينة، فقد ارتدت العرب، ومن البديهي أن تصبح المدينة مقصداً لهم، وقد طابقَ رأي عمر بن الخطاب رأيَ أسامة بن زيد قائد الجيش نفسه، ألم يكن إبقاء الجيش في المدينة أسلم من إنفاذه لقتال عدو بعيد ؟
- طبعاً في كلام عمر بن الخطاب وجهة نظر سليمة، ومن مثل عمر لا يُتهم في رأيه، ثم ولو كان رأيه خاطئاً فما نشكُّ في نيته وحبه لله ورسوله وللإسلام، فهو حين أعطى رأيه إنما أعطاه لما رأى أنه الأنفع نظراً للظرف السياسي الطارئ الذي لم يكن بالحسبان، ولكن يبدو يا بُني أنك لم تنتبه إلى نقطة جوهرية في الموضوع.

- وما هي يا خليفة رسول الله؟
- لو كنتُ أنا الذي عزمتُ على إرسال جيش أسامة في هذه الظروف الخطرة والإستثنائية لقبلتُ رأي عمر بن الخطاب، أو على الأقل لقلبته في عقلي، ولكن هذا الجيش تشكَّل بأمر النبي ﷺ، وهذا اللواء قد عقده بيده، فكيف أحلُّ لواءً عقده النبي ﷺ

- ألستَ الخليفة، ولكَ الاجتهاد في الظروف المتغيرة؟
- بلى أنا كذلك، ولكني متبع لا مبتدع، ولا أجتهدُ حيث قضى النبيُّ ﷺ الأمر، وأن آتي يوم القيامة فيُقال هذا أبو بكر الذي قُتل لأنه أنفذ جيشاً أمره النبي ﷺ أن يمضي ولم يُبقه في المدينة ليحميه أحب إليَّ من أن يُقال هذا أبو بكر الذي سَلِم لأنه حلَّ لواءً عقده النبيَّ ﷺ.
- لا أحد يُشبهك في اتباعك يا أبا بكر، لا أحد يُشبهك!
- بارك الله بك يا بُني.
- ولكن عندي سؤال آخر.
- وما هو؟
- ألمْ يكن في كلام الأنصار وجهة نظرٍ أيضاً في أن تعزل أسامة بن زيد وتُعيِّن مكانه من هو أكبر سناً منه؟
- أية وجهة نظرٍ هذه في أن أعزل رجلاً عيَّنه النبيَّ ﷺ على قيادة الجيش، إني لو فعلتُ فكأني أتهم النبي ﷺ بأنه أخطأ في تولية أسامة والعياذ باللهِ. ثم إن حجة أن أسامة صغير في السِّن ليست جديدة فقد قيلتْ في حياة النبي صلى لله عليه وسلم وقد ردَّ عليها بنفسه حين قال: إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأَيمَ الله إنه كان خليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحبّ الناس إليَّ، وإنَّ هذا لمن أحبّ الناس إليَّ بعده.

فالنبيُّ ﷺ لو يولِّ أسامة لحبّه إياه فقط، وإنما ولاه لأنه جدير بالإمارة، وأي قول غير هذا اتهام مبطن للنبي ﷺ بأنه لم يكن

يضـع الرجل المناسـب في المـكان المناسـب، أو كان يُقـدِّم الحُبَّ فـي توليـة النـاس للمناصب علـى الكفـاءة، فـأي إيمان يبقـى للمرء إن اعتقـد هـذا، ثـم إن مـا حدث بعـد ذلك مـن انتصار أسـامة لدليل أنـه كان جديـراً بقيادتـه الجيش على صغر سـنه، وهذا مـن فقه النبي ﷺ فـي اسـتعمال الشـباب إذا رأى منهـم موهبـة وقـدرة، فالعبـرة ليسـت فـي السـن، فبرأيـك أيهمـا أنفـع للجيش شـاب صغيـر عنده الخبـرة بالحـرب، أم رجـل متقـدم فـي السـن لا يعرف منها شـيئاً؟

- بالطبع الشاب الذي لديه خبرة بالحرب.
- وهـذا مـا فعله النبـي ﷺ، وقد اتبعتـه في فعله، ومـا كان لي أن أعـزل قائداً عيَّنـه النبي ﷺ.
- ألمْ أقل لكَ أنه لا يُشبهك أحد في اتباعك؟
- هذا من حُسن ظنك يا بُني.
- فإن لم تكن أنت أهلاً لحسن الظن فمن عساه يكون؟
- بارك الله بك، فهل عندكَ شيء تسأل عنه بعد؟
- أجـل عنـدي، أردتُ أن أسـألكَ مـاذا قصـدتَ بقولـكَ: إنَّ لـي شـيطاناً يعترينـي فـإذا أتانـي فاجتنبونـي لا أؤثـر فـي أشـعاركم وأبشـاركم؟
- أردتُ أن أقـول للنـاس أنـي نهايـة المطـاف بشـر، ولـكل إنسـان طبـع، ومـن طباعي أني فـي مواقف ضيقـة أغضبُ، وقـد لا أملـكُ زمـام نفسـي حينهـا، فطلبـتُ منهـم أن لا يناقشـوني وقتهـا، خشـية أن أقـول لأحدهم كلامـاً لا أريدُ أن أقولـه، فإنـي لا أريـدُ أن يكـون لأحـد مـن المسـلمين

مظلمـة عنـدي ولـو كانـت كلمـة جارحـة قلتهـا في سـاعة غضـب تعترينـي.

- تخشى حتى أن تجرح أحداً بكلمة؟
- ومـا لي لا أخشـى هذا؟ يا بُنـيَّ إن الناس قلـوب وكرامات، وجـرح كرامـة إنسـان، وكسـر خاطـره وقلبـه بكلمـة لهِـيَ عظيمـة عنـد اللـه، فكمـا أن جبـر الخواطـر عبـادة، فـإن الحـرص علـى عـدم كسـرها مـن الأسـاس عبـادة أيضاً!
- أتعبتَ من بعدكَ يا أبا بكر، فهل نكمل؟
- تفضل يا بُني.
- أعجبنـي أدب أسـامة معـكَ إذ أراد أن ينـزل عـن فرسـه لتركـب، فأنـتَ الخليفة وقـد أرادَ أن يُنزلكَ منزلـكَ، فلماذا رفضـتَ أن ينـزل وتركـبَ؟
- واللـهِ إن أسـامة كان سـمحاً مؤدبـاً، وأكبـرتُ منـه أنـه لـم يـرضَ أن يركـبَ هـو بينمـا أمشـي أنـا، ولكني رفضـتُ أن ينـزلَ لأركـبَ مكانه لسـببين:

الأول: لأنـه قائـد الجيـش، وأردتُ أن أوقـره أمـام النـاس خصوصـاً بعـد مـا نُصحـتُ بـه مـن عزلـه، فكأنـي بتصرفـي هذا أقـول للنـاس: إذا كنـتُ أنـا الخليفـة أسـيرُ وقائد الجيـش راكب، فأنتـم أولـى بطاعتـه.

الثانـي: كان الجيـشُ خارجـاً للجهـاد وقـد أردتُ أن أمشـي معهـم قـدر اسـتطاعتي وأغبِّـر قدمـيَّ قليـلاً فـي سـبيل اللـه!

- فلماذا استأذنت أسامة في إبقاء عمر بن الخطاب معكَ في المدينة وأنتَ الخليفة وهو الذي يجب أن يأتمر بأمرك لا العكس؟
- لأنَّ عمر بن الخطاب كان قد ذهبَ في جيش أسامة في حياة النبي ﷺ، ولكن كما أخبرتك فإن الجيش كان في معسكره عند مشارف المدينة حين ماتَ النبيُّ ﷺ، وعندما أعطيتُ الأمر للجيش بالمسير، كان عمر بن الخطاب ضمناً تحت إمارة أسامة بن زيد، فأدباً مني لم أتخطَّ قائد الجيش وآخذ أحد مقاتليه دون إذنه وإن كنت بالعرف السياسي القائد الأعلى للقوات المسلمة، أي قائد عمر وأسامة، ولكن الأدب مطلوب مع الناس يا بُني وإن كانوا يعملون تحت إمرتك.
- ألمْ أقل لكَ أنكَ أتعبتَ الناس من بعدك يا أبا بكر؟

- باركَ الله بكَ يا بُني، فهل من شيء عندك بعد تسأل عنه؟
- أردتُ أن أسألكَ عن وصاياك للجيش، لماذا هذه الوصايا بالذات؟
- يا بُني نحن نحارب باسم اللهِ لا باسم أهوائنا، ونعتبر الحرب في ظل الإسلام عبادة كالصلاة والصيام تماماً، لهذا نخوضها ضمن الضوابط التي حددها لنا ربنا سبحانه، وما أمرتُ الجيش إلا بوصايا كان النبيَّ ﷺ يوصي الجيش بها.

فلا نرضى الخيانة لأننا أمة الأخلاق، ولا نغلُّ لأن السرقة من الغنائم عمل قطاع الطرق لا عمل المجاهدين في سبيل الله، ولا نُمثل في قتلى أعدائنا لأننا لسنا أمة همجية، ولا نفعل هذا بأعدائنا ولو فعلوا مثله معنا، فتنازل الناس عن أخلاقهم ليس مبرراً لنا لنتنازل عن أخلاقنا. ولا نقتل الأطفال والنساء والشيوخ فنحن لا نحارب إلا من حاربنا، ولا نقطع الشجر المثمر لأننا لسنا رعاعاً، ولا نعقر الدواب إلا لأكلها لأنها أرواح خلقها الله تعالى لهذا الغرض، ولا نعتدي على الآمنين في صوامعهم وإن خالفونا في الدين لأنه ليس لنا إلا دعوتهم بالمعروف، فإن أجابوا كان أجرهم وأجرنا على الله وإن رفضوا فحساب الناس جميعاً على الله.

- يا له من دين يا أبا بكر.

- صدقتَ، يا له من دين!

- فماذا عن ردة فعل العرب بعد وفاة النبي ﷺ؟
- لما توفّي النبي ﷺ ارتدتْ العرب إلا مكة والمدينة والبحرين بقوا على ما كانوا عليه من الإسلام.
- يا الله، تركَ الجميع دين الإسلام وعادوا إلى الوثنية.
- لا ليس هكذا يا بُني.
- وكيف إذاً؟
- لم يكن المرتدون في رِدّتهم على مستوى واحد وإنما كانوا فريقين:

الفريق الأول: أبقوا على الصلاة والقرآن ولكنهم منعوا الزكاة، وقالوا كنا ندفعها للنبي ﷺ وهو حي، أما وقد ماتَ فلا ندفع أموالنا لأحدٍ من الناس بعده

الفريق الثاني: فقد كفروا بالكليّة وآمنوا بالكذابين الذين ادعوا النبوة بعد موت النبي ﷺ خصوصاً مسيلمة الكذاب، وطليحة الأسدي.

- إذاً لم يعبد المرتدون الأصنام؟
- لا يا بُني لم يعبد أحد الأصنام في جزيرة العرب.

- وماذا عن الأسود العنسي ألم يرتد أيضاً؟
- بلى ارتدَّ ولكن كان له شأن آخر غير طليحة ومسيلمة.
- وكيف هذا؟
- أما طليحة ومسيلمة فقد ادعيا النبوة بعد وفاة النبي ﷺ، وأما الأسود العنسي فكان جباراً مشعوذاً، اعتنق الإسلام، ثم ما لبثَ أن ارتدَّ في زمن النبي ﷺ، وادعى النبوة، واتسع سلطانه حتى حكم مناطق شاسعة في جزيرة العرب، فأرسل النبي ﷺ إلى مسلمي اليمن بقتاله، فقاتلوه وقتلوه قبل شهر من وفاة النبي ﷺ.
- حسناً فهمتُ، ولكن أخبرني ماذا فعلتَ بالمرتدين؟
- فأما الذين أرادوا منع الزكاة، فأرسلوا وفداً إلى المدينة ليقابلني، وقالوا: نؤمن باللهِ ونشهدُ أن محمداً رسول الله، ولكننا لا نعطيكم أموالنا.

فقلتُ: واللهِ لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه.

وقلتُ لهم: ليس عندي إلا هذا. فخرجوا إلى أقوامهم يخبرونهم بقلة عدد المسلمين في المدينة خصوصاً أن جيش أسامة لم يكن قد عاد بعد.

- فما كان رأي الصحابة في قرارك؟
- لم يكن أغلبهم يميلُ إلى رأيي، حتى أن عمر بن الخطاب قال لي: كيف تقاتلهم وقد قال النبي ﷺ: أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن

قال لا إله إلا الله فقد عصمَ مني نفسه وماله إلا بحقه، وحسابه على الله.

فقلتُ له: واللهِ لأقاتلنَّ من فرَّقَ بين الصلاة والزكاة، فإنَّ الزكاة حق المال، واالله لو منعوني عِناقاً/ الأنثى من أولاد المعز لقاتلتهم على منعها!

- فمن غير عمر بن الخطاب رأى غير رأيك؟
- جادلني في رأيي كثير من كبار الصحابة كأبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة وسعد بن عبادة وغيرهم كثير.
- فما كانت وجهة نظرهم؟
- كانوا يرون أن اللين أولى، وأن الأرض قد زُلزلت بالردة فما يُطاق تثبيتها، وعاد عمر بن الخطاب ليقول لي: يا خليفة رسول الله تألَّفِ الناس وارفق بهم فقلتُ له: رجوتُ نصرتكَ وجئتني بخذلانك، أجبَّار في الجاهلية وخوَّار في الإسلام يا عمر؟! وتقول لي أن النبي ﷺ قال: أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصمَ مني نفسه وماله إلا بحقِّه. ومن حقها الصلاة وإيتاء الزكاة ولو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي، ولأقاتلنَّ من فرَّقَ بين الصلاة والزكاة، وإنه قد انقطع الوحي، وتم الدين، أينقصُ الدين وأنا حي.

- فما الذي حدث بعد ذلكَ؟

- شـرح اللـه صدورهـم لمـا شـرح اللـه لـه صـدري، ورأوا الحـقَّ فيمـا أقـول وأنـه لـو فرطنا فـي الـزكاة ما يلبـث أن لا يبقـى للنـاس ديـن، كل واحـد سـيقول أفعـلُ كـذا وأتـرك كـذا.

- صدقـتَ يـا خليفـة رسـول اللـه، واللـهِ لقـد حفـظَ اللـه بكَ الإسـلام إذ وقفـتَ يومهـا وقفة الأسـد الضـاري الـذي لا يخاف فـي اللـه لومـة لائم.

- بارك الله بك يا بُني.

- فما الذي حدث بعد ذلك؟

- كنـتُ أعرفُ أن المرتدين سـيهاجموننا فـي المدينة، فبعدما رجـع وفدهـم خائبـاً مـن عنـدي، جعلـتُ علـى أنقـاب المدينة فرسـان المسـلمين عليـاً والزبير وطلحـة وعبد الله بـن مسـعود، وأخـذتُ أهـل المدينـة إلـى المسـجد وقلتُ لهـم: إنَّ الأرض كافـرة، وقـد رأى وفدهم قلةً فينـا، وإنكم لا تـدرون أليـلاً تُؤتون أم نهـاراً، وأدناهم منكـم على بريد، وقـد كانـوا يأملـون أن نقبـل منهـم ونوادعهـم، وقـد أبينـا عليهـم، فاسـتعدوا وأعدُّوا.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لـم يمـر إلا ثلاثُ ليـالٍ حتى أغـاروا علـى المدينـة بالليل، فتصـدى لهـم الفرسـان الذيـن وضعتهـم علـى مداخـل

المدينـة، وأرسـلوا إلـيَّ والقتـال ناشـب، فقلـتُ لهـم: الزمـوا أماكنكـم، وخرجـتُ ومـن معـي مـن المدينـة حتى ناصرناهـم وقتلنـا منهـم مقتلـةً عظيمـة وعـادوا أدراجهـم خائبيـن.

- حدث ما كنت تخشاه إذاً.
- حـدث مـا كنـتُ أتوقعه لا مـا كنتُ أخشـاه، فلا أخشـى إلا اللـه، وبفضل اللـه كنا فـي انتظارهـم ودحرناهم.
- وما الذي حدث بعد ذلك؟

- قلـتُ فـي نفسـي الآن نُهاجِـمُ ولا نُهاجَـمُ، وقـد علمتُ أن المرتديـن قـد عسـكروا عنـد ذي القَصَّة وهو موضع مسـير ليلـة عن المدينـة، فهيأتُ الناس وحمَّسـتهم، وسـرنا إليهم ليـلاً فـي هـدوء وحـذر، فوصلنـا إليهـم عنـد الفجـر، وما انتبهـوا إلينـا إلا وقـد أعملنـا فيهـم السـيف وقتلناهـم شـرَّ قتلـة وأظفرنـا اللـه بهـم. فـازداد المسـلمون ثباتـاً ويقينـاً أننـا علـى الحـق، وعاد بعـض مانعي الـزكاة إلى رشـدهم، فأرسـلوا إلـيَّ بالـزكاة فاسـتعنا بهـذه الأمـوال علـى تهيئـة الجيـوش، وبمقاتليهـم بعـد أن مـنَّ اللـه عليهـم أن عـادوا إلـي حِياض الإسـلام.
- كل هذا قبل مجيء جيش أسامة؟
- أجل يا بُني كل هذا قبل مجيء جيش أسامة.

- يـا لـكَ مـن قائـد مغـوار، الرجـل الأسـيف الـذي لـم يكن يقـوى علـى القـرآن كشَّـر عـن أنيـاب الأسـد الكامـن فيه.
- يا بُنيّ من قال أن الإيمان مدعاة للجُبن؟
- لـم أقصـد هذا، مـا قصدته أنه قد عُـرف فيك الرقـة واللين، فمـن أين أتتك كل هذه الشراسـة؟
- لـم يكـن لأبـي بكـر أن يليـن فـي موضـع الشـدَّة، ولا أن يشـتدَّ فـي موضـع الليـن، لـكل موقـف مـا يقتضـي وهـذا أوان الحـرب، وأنـا لهـا.
- واللهِ إنكَ لها، فما الذي حدث بعد عودة جيش أسامة؟

- عـاد أسـامة بـن زيـد بجيشـه ونحـن نريـدُ أن نخـرج إلـى الربـذة وهـي موضـع يبعـد عـن المدينة ثلاثـة أميـال، كان المرتـدون قـد جمعـوا مـا تبقـى منهـم فيـه، فقلـتُ لهـم: اسـتريحوا، فأنتـم متعبـون مـن السَّـفر، وخرجـتُ مـع الجيـش، فقـال لي المسـلمون: يا خليفة رسـول اللـه، إنكَ إن تُصـب لم يكـن للناس نظـام، ومقامك على العدو أشـد فابعـثْ رجـلاً فـإن أُصيـبَ أمَّـرتَ غيـره.
- نِعم الرأي، فهل أخذتَ به؟
- لا واللهِ، ما كان لي إلا أن أكون على رأس الجيش.
- يا لكَ من صنديد يا أبا بكر، فما الذي حدث بعدها؟
- جـاء إلـيَّ علـي بن أبـي طالب وقـال لي: يـا أبا بكـر، أقول لـكَ مـا قالـه لـكَ النبـي ﷺ يـوم أحـد: اِغمِـدْ سـيفَكَ ولا

تفجعنا بنفسك، وارجعْ إلى المدينة فواللهِ لئن أُصبنا فيكَ لا يكون للإسلام بعدكَ نظام أبداً

- صدقَ واللهِ عليٌّ، فماذا قلتَ له؟
- قلتُ له: واللهِ لا أفعل، ولأساويَنّكم بنفسي.

وسرتُ بهم حتى أتينا الربذة وقاتلنا المرتدين على اسم الله وهزمناهم شرَّ هزيمة.

- واللهِ إنك لنعمَ الخليفة الباسل، وإن جنودك لنعم الجنود الأشداء.
- وهكذا كانوا فعلاً.

- ومـاذا عـن مسـيلمة الكـذاب، واليمامـة يـا خليفـة رسـول الله ؟
- كان مسـيلمة الكـذاب يُحـدّث نفسـه بادّعاء النبـوة في حياة النبـي ﷺ، فقـد كان يبعـثُ من قومـه بني حنيفة من يسـتمع القـرآن ثـم يقـوم بنسـج أسـجاع تافهـة معتقـداً أنـه يُحاكي القـرآن، ومـن حماقاتـه التـي قالهـا مدعيـاً أنهـا وحـي أتاه مـن السَّـماء:» يـا ضفـدع يـا ضفدعيـن، نقـي مـا تنقيـن، أعـلاكِ في الماء وأسـفلكِ فـي الطين، لا الشـارب تمنعين، ولا المـاء تُكدِّرين»!

ويـا سـبحان من يهـدي ويضـلُّ، فقد وجـدَ كثيراً مـن الحمقى الذيـن صدّقـوا أنه نبـي، وبعضهـم اتبعه حميَّـة وعصبيـة جاهلية، ولمـا سُـئلوا فـي أمـره، وقيـل لهـم: أنتـم تعلمـون أن مسـيلمة كذاب.

قالـوا: نعـم إنـه كـذاب، ولكـن كـذاب ربيعـة أحـبُّ إلينـا من صـادق مُضر!

يعنـون بصادق مُضر النبي ﷺ، يشـهدون بصدقـه، ولا يؤمنون بنبوته!

- فهل التقى مسيلمة الكذاب بالنبي ﷺ؟
- أجل يا بُني، لقد التقى به.
- فمتى؟ وأين؟
- في العام التاسع للهجرة الشريفة جاء بنو حنيفة ليسلموا بين يدي النبي ﷺ، وكان من بين من جاء منهم إلى المدينة المنورة مسيلمة الكذاب، وجعل مسيلمة يقول: إن جعلَ لي محمدٌ الأمرَ بعده تبعته!

فأقبل النبي ﷺ وما معه إلا ثابت بن قيس بن شمَّاس وفي يده جريدة نخل حتى وقف عند مسيلمة وقال له: لو أنكَ سألتني هذه ما أعطيتك، ولئن أدبرتَ ليعقرنَّك الله، وهذا ثابت يجيبك عني، وإني لأحسبُكَ الذي رأيتُ فيما أُريتُ!

- وماذا قصدَ النبي ﷺ بقوله لمسيلمة الكذاب: وإني لأحسبكَ الذي رأيتُ فيما أُريتُ؟
- قال لنا النبيَّ ﷺ مرةً: بينما أنا نائم أُريتُ كأنَّ في يديَّ سوارين من ذهبٍ فأهمَّني شأنهما، فأوحيَ إليَّ أن اُنفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما الكذابين يخرجان بعدي: العنسي صاحب صنعاء، ومسيلمة صاحب اليمامة.
- أشهدُ أنه لرسول الله، وماذا حدثَ بعد ذلك؟
- في العام العاشر للهجرة مرضَ النبيُّ ﷺ مرضه الذي ماتَ فيه، فكتب إليه مسيلمة رسالة يقول فيها: من

مسـيلمة رسـول اللـه إلـى محمـد رسـول اللـه، أمـا بعـد، فإنـي قـد أُشـركتُ فـي الأمـر معـكَ، فلـيَ نصـف الأرض ولـكَ نصفهـا!

فاسـتدعى النبـيُّ ﷺ أُبـي بـن كعـبٍ، وأملـى عليه رسـالةً إلى مسـيلمة قـال لـه فيها:

مـن محمـد رسـول اللـه إلـى مسـيلمة الكـذاب: أمـا بعـد، فـإن الأرضَ للـهِ يورثهـا مـن يشـاء مـن عبـاده والعاقبـة للمتقين. والسـلام علـى مـن اتبـع الهُـدى!

- ومن الذي حملَ رسالة مسيلمة الكذاب إلى النبي ﷺ؟
- حملهـا إليـه رجـلان أحدهمـا يُقـال لـه ابـن النواحـة وآخر لا أعرفـه، ولمـا قـرأ النبـيُّ ﷺ رسـالة مسـيلمة الكـذاب، سـألهما: ومـاذا تقـولان أنتمـا؟

فقالا: نقول كما قال.

فقـال لهمـا: أمـا واللـهِ لـولا أن الرُّسـل لا تُقتـل لضربـتُ أعنا قكمـا.

- ومن الذي حمل رسالة النبي ﷺ إلى مسيلمة الكذاب؟
- حملهـا حبيـب بـن زيد الأنصـاري ابـن أم عمـارة، وعندما قـرأ مسـيلمة الرسـالة قـال لحبيـب: أتشـهدُ أنه رسـول الله؟

فقال له: نعم.

فقال مسيلمة: أتشهدُ أني رسول الله؟!

فقال له: أنا أصمٌّ لا أسمع!

فقطع مسيلمة عضواً من جسد حبيب، ثم عاد فقال له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟

فقال: نعم.

فقال له مسيلمة: أتشهدُ أني رسول الله؟

فقال له: إني أصم لا أسمع!

وهكذا بقيَ يقطع منه عضواً بعد عضو ويسأله، فيشهد أن محمداً رسول الله، ويقول له إذا سأله عما إذا كان يشهد أنه رسول الله، فيقول إني أصم لا أسمع. حتى ارتقى شهيداً ثابتاً.

- سبحان الله، اُنظرْ إلى الفرق بين النبي والكذاب يا خليفة رسول الله، فأما النبي وهو الصادق رفض قتل الرسولين لأن الرُسل لا تقتل، أما مسيلمة وهو الكذاب فقد قتل حبيبَ بن زيد ولم يُراعِ حرمة الرسل، وما تعارف عليه الناس جميعاً بأن الرُسل لا تقتل.

- لقد لخصتها بقولكَ يا بُني: هذا هو الفرق بين النبي والكذاب!

-وما الذي حدث بعد ذلك يا خليفة رسول الله؟

- بعد وفاة النبي ﷺ استفحل امر مسيلمة في بني حنيفة، واتبعه أكثرهم، إلا ثمامة بن أثال ومعه نفر قليل ثبتوا على أن محمداً رسول الله، وأن مسيلمة كذاب. وكان خالد بن الوليد

قـد انتهى مـن قتال أسـد وغطفـان ومالك بـن نويرة، فكتبـتُ إليه أن يسـير إلـى اليمامة لقتال مسـيلمة.

- وماذا كتبتَ له؟

- قلـتُ لـه: إنـي أحمـدُ الله الفـرد الصمد، سِـرْ إلـى اليمامة، واتـقِ اللـه وحـده، وعليـكَ بالرفـق بمـن معـكَ مـن المسـلمين، كُـنْ لهـم كالوالـد وإيـاكَ يـا خالد ونخـوة بني المغيـرة، فإنـي قـد عصيـتُ فيـكَ مـن لـم أعصهِ في شـيءٍ قـط، فانظُـرْ إلـى بنـي حنيفـة إذا لقيتهم إن شـاء اللـه فإنك لـم تلـقَ قوماً يُشـبهون بنـي حنيفة كلهـم عليكَ ولهـم بلادٌ واسـعة، فـإذا قدمـتَ فباشـر الأمـر بنفسـك، واجعـل على ميمنتـك رجلاً وعلى ميسـرتك رجلاً، واجعـلْ على خيلك رجـلاً، واستشـر من معـكَ من الأكابـر من أصحـاب النبي ﷺ مـن المهاجريـن والأنصـار، واعرفْ لهـم فضلهم، فإذا لقيـتَ القـوم وهـم علـى صفوفهـم فالقهـم إن شـاء اللـه وقـد أعـددتَ للأمـور أقرانها، فالسـهم للسـهم، والسـيف للسـيف، وهـوِّل فيهـم القتل!

- يـا لها من رسـالة يا خليفة رسـول الله، فعلى خبرة خالـد وعبقريته الحربيَّـة إلا أنكَ تعطيه نصائح الخبير العارف بأسـرار الحرب.

- يـا بُنـي كان واللـهِ خالـد بـن الوليـد أسـداً مـن أسـود اللـه، وكنـتُ أثـق به أيما ثقـة، ولكني لا أدخر نصحاً لمسـلم في سـلم، فكيـف فـي حـرب والأرواح علـى الأكف؟

- ومـاذا عنيـتَ بقولـكَ لخالـد: وإيـاك ونخـوة بنـي المغيرة، فإنـي قـد عصيـتُ فيـكَ مـن لـم أعصه فـي شـيءٍ قط؟

- كان بنـو المغيـرة أهـل حـرب فـي الجاهليـة، وكان فيهـم شـجاعةً وإقداماً، يقتحمـون الجيـوش غيـر عابئيـن، وكان خالد مـن فرط شـجاعته وإقدامه مثلهـم، بل كان أشـجعهم، وكان عمر بـن الخطاب يُشـير علـيَّ أن أعـزل خالد بـن الوليد لهذا السـبب، فقـد كان يـرى أن خالـداً لـه شـجاعة تصـل حـدَّ التهـور، وأنه قد يحمـل المسـلمين بشـجاعته المفرطـة هـذه علـى مـا لا يطيقون، وكنـتُ أقـول لـه: أمـا تـرى أن خالـداً لا يُحـارب إلا وانتصر.

فيقـول: هـذا الـذي أخشـاه أن يُفتتن المسـلمون بـه، فيقولون إنمـا ننتصـر بخالد!

كان عمـر ناصحـاً أمينـاً، وكان يـرى رأيـاً، وكنـتُ أرى رأيـاً، وغفـر اللـه لـي وله.

- وما الذي حدث بعد ذلك يا خليفة رسول الله؟

- التقـى الجيشـان، وحـدث بينهمـا قتـال عظيـم، مالـتْ فيـه الكفـة أول الأمـر لصالح جيش مسـيلمة، واستشـهد خيار صحابة النبـي ﷺ كان منهـم ثابـت بـن قيـس بـن شـماس، وعبـد الله بن سـهيل بـن عمـرو، وأبـو دجانـة، وعبَّـاد بـن بشـر، والطفيـل بـن عمرو الدوسـي.

- وماذا صنعَ خالد؟

- كان خالـد إذا تلقّـى الضربة صمد، فسـرعان مـا أعاد ترتيب الجيـش، ورفـع معنويـات جنـده، وحملـوا علـى جيـش

مسيلمة وأحدثوا فيهم مقتلةً عظيمة، فانسحبوا إلى الحديقة.

- ما هي الحديقة؟
- حصن منيع كان مسيلمة قد شيَّده.
- وكيف اقتحمه جيش خالد؟
- الفضل من بعد اللهِ يرجع للبراء بن مالك، فعندما دخل جيش مسيلمة إلى الحديقة وأغلقوا بابها المنيع، طلب البراء بن مالك من المسلمين أن يحملوه على الرماح ويلقوه من فوق السور ليفتح لهم الباب.
- يا له من استشهادي!
- هو واللهِ كذلك، امتنعوا اول الأمر عن قبول طلبه حفاظاً على حياته، ولكنه أصرَّ على ذلك، فحملوه على الرماح وألقوه من فوق السور قرب الباب، فاشتبكَ مع الحراس وقتل منهم خمسَ عشرة رجلاً ثم فتح الباب، ودخل الجيش إلى الحديقة، وأعملوا في جيش مسيلمة السيف وأبادوهم.

- وما كان مصير مسيلمة؟
- قتله وحشي بن حرب بحربته التي قتل بها سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب يوم أحد، وكان يقول بعد ذلك مشيراً إلى حربته: قتلتُ بحربتي هذه خير الناس حمزة بن عبد المطلب، وشر الناس مسيلمة الكذاب!
- سبحان من يهدي الناس بعد ضلالة.
- سبحانه وتعالى ما أكرمه على عباده.

- وماذا عن جمع القرآن الكريم يا خليفة رسول الله؟

- توفـي النبـي ﷺ والقـرآن الكريـم لـم يُجمـع فـي مصحف واحـد، وإنمـا كان متفرقـاً فـي الصـدور والألـواح ونحوهـا مـن وسـائل الكتابـة، حيث لم تكن ثمـة دواع في حياته ﷺ اسـتدعت جمـع القرآن فـي مصحـف واحد.

وبعـد أن توليـتُ الخلافـة جـرت حـروب الـردة التـي حدثتـك عنها، واستشـهد فيهـا عدد كبير مـن حفظة القرآن. ثـم كانت معركة اليمامـة التي استشـهد فيها عدد كبير مـن الصحابـة، وكان من بينهم عـدد كبيـر مـن القُراء، ممـا دفع عمـر أن يأتي ويطلب مني الإسـراع فـي جمع القـرآن وتدوينـه، حتى لا يذهـب القرآن بذهـاب حفاظه. فقـال: إن القتـل قد اسـتحرَّ/ اشـتدَّ وكثُر يـوم اليمامة، وإني أخشـى أن يسـتحرَّ القتـل بالقـراء فـي المواطـن، فيذهـب كثير مـن القرآن، إلا أن تجمعـوه، وإنـي لأرى أن تجمـع القرآن.

فقلتُ لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟

فقال : هو والله خير.

فلـم يزل عمـر يراجعنـي فيه حتى شـرح الله صـدري، ورأيت الذي رأى عمر .

فأرسلتُ إلى زيد بن ثابتٍ وعمر بن الخطاب عندي، وقلتُ لزيد: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنتَ تكتبُ الوحي لرسول الله ﷺ، فتَتَبع القرآن فاجمعه.

فقال: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي ﷺ؟

فقلتُ له: هو والله خير.

فاستثقل الأمر، ولم يزل يناقشني حتى شرح الله صدره للذي شرح الله له صدري وصدر وعمر، فقامَ فتتبعَ القرآن يجمعه من الرقاع والجريد والعُسب وصدور الرجال حتى جمعه كله في مصحف واحد.

- بارك الله بك يا خليفة رسول الله، وبارك بوزيرك الناصح الأمين عمر بن الخطاب، أسأل الله أن يجعل كل حرف نقرأه اليوم في مصاحفنا في ميزانكما.
- اللهم آمين، وبارك الله بك يا بُني.

- أردتُ أن أستفسر عن أمرٍ في هذا الشأن إن أذنتَ لي.
- تفضَّل، سَلْ ما بدا لكَ.
- فلماذا زيد بن ثابت تحديداً يا خليفة رسول الله؟
- لأنه كان شاباً يافعاً، وهذه الصفات تؤهله للقيام بمثل هذا العمل الصعب، كما أن الشاب لا يكون شديد الاعتداد برأيه، فعند حصول الخلاف يسهل قبوله النصح والتوجيه. كما أن زيداً كان معروفاً بوفرة عقله،

وهـذا ممـا يؤهلـه لإتمـام هـذه المهمـة. بالإضافة إلـى أنه كان يتولـى كتابـة الوحـي فـي عهـد رسـول اللـه ﷺ، فقـد شـاهد مـن أحـوال القـرآن مـا لـم يشـاهده غيـره. كمـا أنه لـم يكـن متهمـاً فـي دينـه، فقـد كان معروفـاً بشـدة الـورع والأمانـة وكمـال الخلـق والاسـتقامة فـي الديـن. والأهـم أنـه كان حافظاً للقـرآن الكريم عن ظهر قلـب، وكان حفظه فـي زمـن النبـي ﷺ وفـق العرضـة الأخيـرة، فقـد قـرأ زيد بـن ثابـت على رسـول اللـه ﷺ فـي العام الـذي توفـاه الله فيـه مرتيـن، وسُـميت هـذه القـراءة قـراءة زيـد بـن ثابـت، لأنـه كتبهـا لرسـول اللـه ﷺ وقرأهـا عليـه وشـهد العرضة الأخيـرة، وكان يقـرئ النـاس بهـا حتـى مـات.

- ونعم الاختيار يا خليفة رسول الله.
- بـارك اللـه بك يـا بُني، إنمـا اجتهـدتُ رأيي للأسـباب التي ذكرتهـا لـك، وقـد وفَّـقَ اللـه زيـداً فـي مهمتـه، وكان عند حسـن ظني به.

- فما قصة شهادة خزيمة بشهادة رجلين؟
- اشـترى النبـي ﷺ فرسـاً من رجل مـن الأعراب، فاسـتتبعه رسـول اللـه ﷺ ليعطيـه ثمنـه. فأسـرع النبي المشـي وأبطأ الأعرابـي، فطفـق رجـال يلقـون الأعرابـي يسـاومونه على الفـرس، ولا يعلمـون أن رسـول اللـه ﷺ قـد ابتاعـه، حتى زاد بعضهـم الأعرابـي فـي السَـوْم علـى ثمـن الفـرس،

الـذي ابتاعـه رسـول اللـه ﷺ، فلمـا زاده نـادى الأعرابـي رسـول اللـه ﷺ فقـال: إن كنـت مبتاعاً هـذا الفـرس فابتعه وإلا بعتُـه. فأقبـل عليـه النبـي النبـي ﷺ حيـن سـمع قـول الأعرابـي وقـال له: ألسـت قـد ابتعتـه منك؟

فقال الأعرابي: لا والله ما بِعتكَ!

فقال رسول الله ﷺ: بلى قد ابتعته منك.

فطفـق النـاس يلـوذون بالنبـي وبالأعرابـي وهمـا يتراجعـان، فطفـق الأعرابـي يقـول: هلمّ شـهيداً يشـهد أنّي بعتـك. فمن جاء مـن المسـلمين قـال للأعرابي: ويلك إنه رسـول اللـه ﷺ لم يكن ليقـول إلّا حقـاً. حتـى جـاء خزيمة بن ثابـت فقال: أنا أشـهد أنك قـد بايعته.

فقـال رسـول اللـه ﷺ: مـا حملـك علـى الشـهادة ولـم تكـن حاضـراً؟

فقـال خزيمـة: صدقتـك لمـا جئـت به وعلمـت أنـك لا تقول إلّا حقاً.

فقـال رسـول اللـه ﷺ: «مـن شـهد لـه خزيمـة أو شـهد عليـه فحسـبه». فجعـل رسـول الله ﷺ شـهادة خزيمة بشـهادة رجلين.

ولمـا جمـع زيد بـن ثابـت المصحـف كان من شـروط تدوين الآيـة في المصحـف أن يشـهد اثنان مـن الصحابة أنهم سـمعوها مـن فـم رسـول اللـه ﷺ. وفقـدَ زيدٌ آيـة كان سـمعها من رسـول اللـه ﷺ فوجدهـا عنـد خزيمـة بـن ثابـت الأنصـاري ﴿ مِـنَ

الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾

فكتبها زيد في المصحف.

- هنيئاً لخزيمة تزكية النبي ﷺ

- صدقتَ يا بُني، واللهِ إنها لشهادة يُغبطُ عليها.

- والآن هـل يـأذن لـي خليفة رسـول الله أن أسـأله عن بعض الأمـور التـي حدثـتْ معه فـي خلافتـه بعيـداً عـن الحرب والقتال؟
- تفضَّل يا بُني سَلْ ما بدا لكَ.
- كنـتَ رجـلاً ثريـاً، وخرجتَ بمالـكَ كله يوم الهجـرة، فكم كان معـكَ من المـال يوم وليـتَ الخلافة؟
- لم يكن معي شيء!
- وأين ذهبَ مالك؟
- علمـتُ أنـه لا يمكننـي أن أصطحـب مالـي معي إلـى القبر عندمـا أمـوت فجعلته يسـبقني إلى هنـاك، وأنفقتـه كله في سـبيل الله.
- فما آخر مالكَ الذي أنفقته في سبيل الله؟
- أنفقـتُ آخـر مـا أملـكُ مـن مـالٍ يـوم أمرنـا النبـيُّ ﷺ أن نُجهِّـز جيـش العُسْـرة.

- وما هو جيش العُسرة يا خليفة رسول الله؟
- هـو الجيـش الـذي خـرجَ إلـى تبـوك لقتـال جيـش الـروم، وقـد وقعتْ هـذه الغزوة في شـهر رجـب من العام التاسـع

للهجرة، وسببها الأساسي هو وصول خبر إلى النبي ﷺ أن ملكَ الروم وقبائل العرب التي كانت على النصرانية كانوا قد عزموا الخروج إلى المدينة لقتالنا، فأمر النبي ﷺ بتجهيز جيش المسلمين، وكنا في وقت حر وفقر وجدب، فجدنا بأموالنا، وخرجنا لملاقاة الروم في جيش قوامه ثلاثين ألفاً، وسرنا حتى وصلنا إلى تبوك فلم نجد أحداً من الروم أو من حلفائهم من نصارى العرب، فبقينا هناك عشرين يوماً بانتظارهم ولكن لم يتجرأوا على المجيء فعدنا أدراجنا إلى المدينة.

- أليست هذه الغزوة التي حاول فيها عمر بن الخطاب أن يسبقك في الإنفاق فيها؟
- بلى، هي كذلك.
- فما القصة يا خليفة رسول الله؟
- القصة يرويها عمر بن الخطاب فيقول: أمرنا النبي ﷺ أن نتصدق لتجهيز جيش تبوك، ووافقَ ذلكَ عندي مالاً، فقلتُ: اليوم أسبقُ أبا بكر! فجئتُ بنصف مالي، فقال لي النبي ﷺ: ما أبقيتَ لأهلك؟

فقلتُ: مثله.

فأتى أبو بكر بكل ماله وهو يومها أربعة آلاف درهم، فقال النبي ﷺ: ما أبقيتَ لأهلك يا أبا بكر؟

فقال: أبقيتُ لهم الله ورسوله!

فقلتُ: لا أسبقه إلى شيءٍ أبداً!

- كل مالك يا أبا بكر؟

- كل مالـي يـا بُني، قلتُ لـكَ أني كنتُ أعرفُ أني لا أسـتطيع أن آخـذ مالي معـي إلى القبر، فجعلتـه ينتظرني هناك!

- تقبَّـلَ اللـه منـكَ أجـر جهـادكَ بنفسـك ومالـك يـا خليفـة رسـول اللـه.

- اللهم آمين.

- فمن جهَّز الجيش غيركما بما أنها سيرةٌ قد فُتحتْ؟

- ضـربَ أثريـاء الصحابـة أروع الأمثلة يومها فـي الإنفاق في سـبيل اللـه، فجـاء عبـد الرحمـن بـن عـوف بنصـف ماله، وجـاء العبـاس بـن عبـد المطلـب بمـالٍ كثيـرٍ، وتصـدق النسـاء بحُليهـنَّ وذهبِهـنَّ، وجـاء عاصم بن عديَّ بسـبعين وسـقاً مـن تمـر طعامـاً للجيـش. وتصـدق الموسـرون بالأحصنـة والخيـول لتكـون ركوبـاً لمن لا حصـان عنده، أمـا عثمـان بـن عفَّـانٍ فقـد فـاقَ الجميـع، فقـد جهَّـز ثلث الجيـش وحـده، حتـى قـال النبـي ﷺ: مـا ضـرَّ عثمـان ما فعـل بعد اليـوم. الكل تصـدَّق يا بُنـي حتى الفقـراء كل بما يستطيع .

- وكيف تصدَّق الفقراء؟

- لمَّـا سـارع أثريـاء الصحابـة بصدقاتهـم لتجهيـز الجيـش، ورأى فقـراء المسـلمين ذلـك، اشـتاقوا أن يبذلـوا ويُنفقـوا،

وشـاركوا الأغنيـاء بما يسـتطيعون، فجـاء أبو عقيل بنصـفِ صاعٍ مـن تمـر هـذا كل ما اسـتطاعه، أمـا عُلبـة بن زيـد فلم يكـن عنده حتـى تمـرة واحدة ليتصـدق بها، فقـال للنبي ﷺ: إنـه ليس عندي مـا أتصـدَّقُ بـه، وإنـي أتصـدَّقُ بعِرضـي علـى كل مسـلمٍ بـكل مظلمـةٍ أصابنـي فيها!

– ماذا قال النبي ﷺ؟

– لمـا كان الغـد، صعد النبـي ﷺ المنبر وقـال: أين المتصدق بعرضه البارحة؟

فقـام عُلبـة بـن زيد، فقـال لـه النبـي ﷺ: أبشِـرْ، فقد قبـلَ الله منـكَ صدقتكَ!

– يا الله، يا لها من أمة، ويا له من جيل!

– يـا بُنـي هـؤلاء هـم الذيـن اصطفاهـم اللـه تعالـى لصحبـة نبيه .

– يـا لكـرم الاصطفـاء، وهنيئـاً لـكَ أنـكَ كنـت سـيِّد هـذه الصفـوة.

– بارك الله بك يا بُني.

– والآن نعـود إلـى مـا كنـا بـه، إذاً لـم يكـن عنـدكَ مـال حين وليـتَ الخلافة؟

– كلا لم يكن عندي مال.

– فمن أين كنتَ تُنفقُ على عيالك؟

- عندما وليتُ الخلافة، كنتُ في أول أيامي أذهبُ إلى السوق فأتاجر بالقليل الذي يكفيني ثم أعود لأتابع أمور الناس، فلقيني مرة عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وأنا ذاهب إلى السوق وعلى كتفي أثواب أريد أن أتاجر بها، فقالا لي: أين تريدُ يا خليفة رسول الله؟

فقلتُ: أريدُ السوق لأبيع هذه!

فقالا: تبيعُ وتتاجر وقد وليتَ أمور المسلمين؟

فقلتُ: ومن أين أطعم عيالي؟

فقالا: انطلِقْ معنا حتى نفرض لك شيئاً.

فانطلقتُ معهما ففرضا لي مئتين وخمسين ديناراً في السنة، وشاةً أحلبها لأهلي، فوجدتُ أن ذلك لا يكفيني، فعدتُ إلى السوق أجني القليل علّه يكفيني مع ما قسموه لي من راتب.

- وما الذي حدث بعد ذلك، أعني هل بقيتَ تتاجر وأنت الخليفة؟

- جاء عمر بن الخطاب إليَّ يوماً فوجد عند بابي نسوةً جالساتٍ ينتظرن عودتي لأقضي لهن حوائجهنَّ. فقال لهنَّ: ما شأنكن؟

فقلنَ: نريدُ خليفة رسول الله لبعض أمرنا.

فانطلقَ عمر يبحثُ عني فوجدني في السوق، فأخذني من يدي وقال: تعال ها هنا.

فقلـتُ: لا حاجـة لـي فـي إمارتكم، قسـمتم لـي مـا لا يكفيني أنـا وعيالي.

فقال لي: سنزيدك.

فقلتُ: ثلاثمئة دينار وشاة.

فقال لي: لا.

فجـاء علـي بـن أبـي طالـب ونحـن علـى هـذه الحـال، فقال: أعـطِ خليفـة رسـول اللـه مـا طلـبَ فليـس ذلـك بالكثير.

فقال له عمر: ترى ذلك؟

فقال علي: نعم.

فقلـتُ: أنتمـا رجلان مـن المهاجريـن ولا أدري أيرضـى بقية المهاجريـن أم لا؟

فانطلقـتُ، وصعـدتُ المنبـر، فاجتمـع علـيَّ النـاس، فقلـت لهـم: أيهـا النـاس إن راتبـي كان مئتيـن وخمسـين دينـاراً وبعض شـاة، وإنَّ عمـر وعليـاً كمَّلا لـي ثلاثمئة دينـارٍ وشـاة. أفرضيتم؟

فقالوا: اللهم نعم قد رضينا!

- أنتَ الخليفة وتترك للناس أن يحددوا راتبكَ؟

- ومـا لـي ألاَّ أفعـل؟ هـي أموالهـم، وأنـا أقـوم بأمـر فيـه خدمتهـم، وليـس لـي مـن مالهـم سـوى مـا قبلـوا أن يعطونـي، أليـسَ إذا اسـتأجرتَ عامـلاً ليعمـل لك عمـلاً ليس له مـن مالكَ سـوى مـا أردتَ أن تعطيـه مـن طيـب خاطـر؟

- بلى، ولكنك الخليفة.

- وإن يكـن، سـواءَ كنت الخليفـة أو موظفاً بسـيطاً في الدولة فليس لـي إلا راتبي الـذي يحـدده القانون لي.
- ولكـن كانٍ بإمكانـك أن تفـرضَ لنفسـك الراتـب الـذي ترضـاه
- أنـا أطلـبُ ولهم الحـق أن يقبلوا أم لا، أمـا أن أفرضَ فليسَ لي أن آخذ شـيئاً مـن أموالهم.
- أتعبتَ من بعدكَ يا أبا بكر!
- هـذا هـو الحـق يا بُنـي، أتريدنـي أن أختـم حياتي بـأن آخذ مـن أموال النـاس مـالاً لا يرضـون أن آخذه؟
- لا واللهِ، ولكن قصدتُ أن كل المال بيدك.
- المـال الـذي بيـدي هـو لهم وليـس لي، هـذا أمانـة عندي، ومـا كنـتُ لأُضيِّع هـذه الأمانة.
- صدقتَ، ما كان لأبي بكر أن يُضيَّع الأمانة.

- فما خبر حلبكَ أغنام الناس؟
- كنـتُ قبـل الخلافـة أحِلـبُ لعجائـز المدينـة أغنامهـنَّ، أحتسـبُ بذلـك الأجـر عنـد اللـه، فلمـا وليـتُ الخلافـة قالـت إحداهـنَّ: الآن لـن يحلـبَ لنـا أغنامنـا!

فسـمعتها، فقلـتُ: لعمـري لأحلبنهـا لكـم، وإنـي لأرجـو ألا يُغيِّرنـي مـا دخلـتُ فيـه عـن خُلـقٍ كنـتُ عليه.

وبقيتُ أحلبُ لهنَّ أغنامهنَّ.

- تحلـبُ أغنـام العجائـز قبـل الخلافـة هـذه نتفهمهـا، أما أن تحلـبَ أغنامهـنَّ وقـد صرتَ خليفـة المسـلمين. أليس في هـذا انتقاصاً مـن قدرك؟
- مـن قـال إنَّ خدمـة النـاس تُنقـص مـن قـدر المـرء، علـى العكـس يـا بُنـي إن قـدر المـرء يرتفـع بخدمـة النـاس خصوصـاً المسـاكين الذيـن ليـس لهـم أحـد إلا اللـه.
- أعني أنكَ الآن الخليفة؟
- إن كنـتُ أحلـبُ لهـنَّ قبـل الخلافة صدقـةً منـي، فإني بعد الخلافـة كنـتُ أحلـبُ لهـنَّ واجبـاً، فهـم رعيتـي، واللـهُ سيسـألني عنهـم يـوم القيامـة.
- لو أنكَ أوكلتَ هذا الأمر لغيرك؟
- أُغلـقُ بـاب خيـرٍ فتحـه اللـه لـي، لا واللـهِ مـا كان لـي أن أفعـل.
- يبـدو أن هذا الشِّـق مـن حديثنا سـيكون عنوانـه: أتعبتَ من بعـدكَ يا أبـا بكر!
- يـا بُنـي، قالـت العـرب: سـيد القـوم خادمهـم، وأنا لسـتُ سـيد النـاس، وإنمـا واحـدُ منهـم وخادمهـم.

- وماذا عن قصة العجوز العمياء؟

- انتبـه عمـر بن الخطـاب إلى أني أخـرجُ إلى أطـراف المدينة بعـد صـلاة الفجر، ثم أدخـل إلى كوخ لسـاعات ثم أنصـرفُ إلى بيتـي، وهـو لا يدري مـا بداخل البيـت، ولا ما أفعلهُ هُنـاك، ولأنه

كان يعـرفُ مـا أعملـه مـن خيـرٍ إلا سـرَّ هذا البيـت، قـرر عمر أن يدخـل إليـه بعـد إنصرافي منـه، ليشـاهد بعينه مـا الـذي أفعله فيه بعـد صـلاة الفجـر. وعندمـا دخل عمـر إلى هـذا الكـوخ الصغير وجـد فيه عجـوزاً لا تقوى علـى الحركة، كمـا أنها كانـت عمياء! فـزادت حيـرة عمـر ودهشـته، وسـأل العجـوز: مـاذا يفعـل هـذا الرجـل عندكم؟

فقالـتْ لـه: يأتينـي كل صبـاح ويُنظف لـي البيت ويكنسـه، ثم يُعِـدُّ لـي الطعـام وينصـرف دون أن يخبرنـي من هو!

عندها قال عمر: أتعبتَ الخلفاء من بعدكَ يا أبا بكر!

- قلـتُ لـكَ يا خليفـة رسـول اللـه أن حديثنا سـيكون عنوانه أتعبـتَ مـن بعـدكَ يا أبـا بكر.
- باركَ الله بكَ يا بُني.

- فمن كانت هذه المرأة؟ أعني هل كان بينك وبينها قرابة؟
- لا يـا بُنـي، ليـس بينـي وبينهـا قرابـة، ولكنها عجـوز عمياء قعيـدة، ليـس لهـا إلا الله، وقـد علمـتُ بأمرهـا، فقلتُ في نفسـي: بـاب خير فتحـه الله لـي، فلأسـتغلنَّه.
- وقـد أحسـنتَ واللـه اسـتغلاله، ولكـن لمـاذا تقـوم بالأمر بنفسـك، لـو كلفَّـتَ به أحـداً غيـركَ يقـوم به
- ومـن أحـقُّ بالأجـر منـي، وأحـوج له، بـل أقوم به بنفسـي، ولا أردُّ صدقـة أراد ربـي أن يتصدقهـا عليَّ.

- فما قصتك مع جابر بن عبد الله. ومال البحرين يا خليفة رسول الله؟
- عندما وليتُ الخلافة جاءنا مال البحرين فقلتُ: من كانت له عِدَّة عند النبي ﷺ فليأتِ.

فجاء جابر بن عبد الله فقال لي: لي عِدَّة عند النبي ﷺ.

فقلتُ: وما عِدَّتكَ؟

فقال: قد قال لي النبيُّ ﷺ لو جاء مال البحرين لأعطيتُكَ هكذا وهكذا وهكذا، يشير إلى حفنةٍ من يديه.

فقلتُ له: خُذْ بكفيكَ.

فأخذ حفنةً بكفيه، ثم عدَّها فإذا هي خمسمئة دينار. فقلتُ له: خُذْ مثليها، فأخذ ألفاً ومضى، ثم أعطيتُ من المال كل إنسان كان النبيُّ ﷺ قد وعده شيئاً.

- وفيتَ إذا بعهدِ النبيِّ ﷺ بعد موته؟
- فبعهد من أفِي إن لم أفِ بعهد النبيِّ ﷺ؟
- صدقتَ، فوعده أحقُّ الوعود بالوفاء.
- فهل عندكَ شيء تسأل عنه بعد في هذا الباب؟
- أجل ما زال عندي.
- فسلْ إذاً.
- هل صحيح أنكَ لم تكُنْ تستعمل أهل بدر على أمور الحكم والولاية؟
- نعم هذا صحيح يا بُني.

- ولمَ؟

- كنـتُ أرى مكانتهـم وأحفظهـا، وأكرمهـم، ولكنـي لـم استعملهم فـي الحكـم لأنـي كرهـتُ أن أدنسـهم بالدنيـا.

- وكيف هذا؟

- يـا بُنـي إن الحكـم فـي كثيـر مـن لحظاتـه اجتهـاد، وتعامل مـع النـاس، وأخـذ ورد، وصـواب وخطـأ، ولكرامـة أهـل بـدر عنـدي أردتُ أن أبعدهـم عـن كل هـذا.

- ولكنـكَ اسـتعملتَ عمر بن الخطـاب، أعني أنـه كان وزيراً لك.

- وهـل يُسـتغنى عن عمر ورأيه، بل إني اسـتأذنتُ أسـامة يوم كان عمـر فـي جيشـه أن يتركه عندي لأسـتعين بـه، عمر بن الخطـاب ليـس كسـائر النـاس، فلا يسـدُّ أحـد مكانـه، وما لا يتـم بـه الواجـب إلا به فهـو واجب، أمـا ولايـة البلدان، والخـراج وجمع الـزكاة فهي قصـة أخرى.

- حسـناً فهمـتُ يـا خليفـة رسـول اللـه، فمـا قصـة سـؤالك النـاس عـن واليـكَ علـى مكـة؟

- فـي أول عـام لـي في الخلافـة كلّفـتُ عمر بـن الخطاب أن يحـجَّ بالنـاس. وفـي العـام التالـي حججـتُ بهم أنـا، فلما دخلـتُ مكـة سـألتُ أهلها: هـل من أحـدٍ يشـتكي مظلمة؟ فما جاءني أحدٌ، وأثنى الناس على واليهم.

- فمن كان والِيكَ على مكة يومها؟

- كان الوالي هو عتَّاب بن أُسيد.

– ألم تكن تثق به؟
– لو لم أكن أثق به ما وليته.
– فلماذا تسأل عنه الناس إذاً؟
– من واجبي أن أُتابع أعمال الولاة، وأسأل الناس مباشرة عنهم، فأنا المسؤول أمام الله إن حدث ظلم على أحد من رعيتي.
– صدقتَ يا خليفة رسول الله.
– بارك الله بك يابُني، فهل عندك شيء تسأل عنه بعد؟
– أجل ما زال عندي ما أسألك عنه.
– فهاته إذاً.
– ما قصة المرأة التي نذرتْ أن تحج صامتة؟
– هذه المرأة من أحمسٍ يقال لها زينب، رأيتها في الحج لا تتكلم، فقلتُ: ما لها لا تتكلم؟

فقالتْ: نذرتْ أن تحج صامتة.

فقلتُ لها: تكلمي. فإنَّ هذا لا يحِلُّ، وهذا من عمل الجاهلية.

فتكلمتْ فقالتْ لي: من أنتَ؟

قلتُ: امرؤ من المهاجرين.

قالت: أي المهاجرين؟

قلتُ: من قريش.

فقالتْ: من أي قريش؟

قلتُ: إنكِ لسؤولة! أنا أبو بكر.

فقالـت: مـا بقاؤنـا علـى هذا الأمـر الصالـح الذي جاء بـه الله بعـد الجاهلية؟

قلتُ: بقاؤكم عليه ما استقامت أئمتكم.

قالتْ: وما الأئمة؟

قلتُ: أما كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟

قالت: بلى.

قلتُ: فهم أولئك الناس.

- فلماذا لم تخبرها باسمك أول الأمر؟
- وما الحاجة إلى ذلك؟
- كانت ستسمع منك فوراً دون أن تناقشك.
- كان غرضـي أن تتـركَ مـا نـذرتْ مـن نـذرٍ باطـل وليس أن أتباهـى أنـي خليفة المسـلمين.
- فماذا قصدتَ بقولكَ: بقاؤكم عليه ما استقامت أئمتكم؟
- قصـدتُ أنَّ النـاس بحكامهم، فإذا التزمَ الحكام بشـرع الله، وطبقـوه على أنفسـهم، وأعلوا من شـأنه تبعتهـم الرعية في ذلـك، ومتـى مـا تركوا شـرع الله وسُـنة نبيـه كانـت الرعية بهذا الأمـر أتـرك منهم له!

- فما قصة قولك: دعاؤه أشد من سرقته؟
- جـاءَ إلـيَّ رجـلٌ مـن أهـل اليمـن مقطـوع اليـد والرجـل، فشـكا إلـيَّ أن الوالـي علـى اليمـن ظلمـه بالسـرقة. وكان هـذا الرجـل يصلي مـن الليـل، وكنـتُ أراه فأقـول: وأبيكَ مـا ليلـكَ بليل سـارق.

ثــم أننــا فقدنــا حُليــاً لزوجتــي أســماء بنــت عميــس، وجعلنــا نبحــث عنهــا، فكان يبحــثُ معنا ويقــول: اللهمَ عليكَ بمن ســرقَ أهــل هــذا البيــت الصالح!

ثــم وجدنــا الحُلي عنــد ضائغ، فســألناه عنه، فأخبرنــا أن رجلاً مقطــوع اليــد والرجــل جــاءه وباعــه إيــاه، فجئــتُ بالرجــل فعرفه الصائــغ فــإذا هــو صاحبنــا الــذي جــاء مــن اليمــن يدعــي أن يــده ورجلــه قــد قطعتــا ظُلماً.

فقلتُ: واللهِ لدعاؤه على نفسه أشدُّ عليه من سرقته.

- وماذا قصدتَ بقولك هذا؟
- أردتُ أن أتعجــبَ مــن تجرئه علــى الله، أكرمناه، وحســبناه مظلومــاً، فقــام بســرقتنا ثــم مثَّــل دور البريء وأخــذ يبحث معنــا عــن الســارق، ويدعو اللــه أن ينتقم ممن قام بســرقتنا، وهو الســارق!
- سبحان الله ما أجرأ بعض الناس على الله.
- بل قل سبحان الله ما أحلمه على الناس.
- فما قصة أيستنَّان بفارس الروم؟
- كان بُنــان أحــد قــادة الــروم، وكان إذا قتــل أحــداً مــن المســلمين، قطــع رأســه وأرســله إلــى قيصــر، ثــم وقعــتْ معركــة بين المســلمين والروم في الشــام وقُتل بُنــان، فبعثَ إلــيَّ عمــرو بــن العــاص وشــرحبيل بــن حســنة برأســه مــع عقبــة بــن عامــر، فلمــا جاءنــي بــه غضبــتُ وأنكــرتُ ذلــك.

فقال لي عقبة: يا خليفة رسول الله، إنهم يفعلون هذا بنا.

فقلتُ له: أفيستنَّان بفارس والروم؟ لا يُحمل إليَّ رأس، وإنما يكفي أن يكتبوا لي كتاباً بما حدث

- ولكنهم كانوا يفعلون هذا بقتلى المسلمين!
- قد علمتُ هذا، ولكننا نعامل الناس بأخلاقنا لا بأخلاقهم، فإذا تخلوا عن أخلاقهم فهذا ليس مبرراً أن نتنازل نحن عن أخلاقنا!
- صدقتَ يا خليفة رسول الله. وبقي هناك شيء أخير أسألكَ عنه في هذا الباب.
- تفضَّلْ يا بُني.

- ما قصة الرجل الذي دخلَ عليكَ أنتَ وعمر فضربته؟
- في أحد أيام الجُمعة قمتُ خطيباً بالناس، فقلتُ في آخر الخطبة: إذا كان الغداة فاحضروا صدَقات الإبل نقسمها بين الناس فإنها كثيرة، ولا يدخلْ علينا أحدٌ أنا وعمر حتى ننتهي من قسمتها. غير أن امرأة قالت لزوجها: خُذْ هذا الخطام/ الحبل واذهبْ إلى أبي بكر فلعلَّ الله يرزقنا جملاً نربطه به.

فما شعرتُ إلا والرجل واقف عند رأسي، فقلتُ له غاضباً: ما أدخلكَ علينا؟

ثم أخذتُ منه الخطام وضربته به، ولما انتهينا من قسمة الإبل ندمتُ على ما كان مني، فناديتُ في الناس: أين صاحب الخطام؟

فجـاء يحمـل خطامـه، فقلـتُ له:اقتـصَّ منـي، واضربنـي كما ضربتكَ !

فقـال لـي عمـر: واللـهِ لا يقتـصُّ منـكَ، لا تجعلهـا سُـنةً كلما أخطـأ خليفـة فـي حق واحـدٍ مـن الرعيـة، قـام المظلـوم بضرب الأميـر فتضيـعُ هيبته!

فقلتُ لعمر: فمن لي من اللهِ يوم القيامة؟

فقال لي عمر: أَرْضِه إذاً.

فأمّـرتُ غلامي أن يعطيـه ناقةً، وثياباً، وخمـسَ دنانير، فأخذها الرجـل راضياً وذهـبَ إلى بيته.

- صدقَ واللهِ عمر، كان هذا أفضل من أن يضربكَ.
- واللهِ لو لم يرضَ إلاّ بضربي ما منعته.
- سبحان الله تدع أحد أفراد رعيتك يضربك؟
- ألستُ قد ضربته أولاً؟
- بلى، ولكنه أخطأ أولاً.
- نعـم أخطـأ بالدخـول دون إذن، ولكـن هـذا لا يبيـح لـي ضربـه، رجـل جاء فـي حاجـة، وصاحـب الحاجـة أرعن، وأن يضربنـي فـي الدنيا أحب إلـيَّ أن أقف يـوم القيامة بين يـدي اللـهِ فيشـكوني إليه.
- أتعبتَ من بعدكَ يا أبا بكر!

- والآن يا خليفة رسول الله أشعر بحرجٍ شديد، وخجل عارم، لشيءٍ أريدُ أن أسألك عنه.
- ولِمَ الحرجُ يا بُني؟ سل ما بدا لكَ.
- الحرجُ يا خليفة رسول الله أن بعض أراذل الناس قد قالوا عنكَ أقوالاً لا نرضى أن تُقال فيك، وأنتَ عندنا أعزُّ وأكرم وأنقى من أن تُتهم، ولكني أردتُ أن أسألك عنها لا لتدافع عن نفسك، معاذ الله، فإنما يحتاج للدفاع من كان متهماً وأنتَ عندنا فوق الشُبهات، ولكن من باب كما جرت العادة منذ أن التقينا أن نسمع القصة من صاحبها، والحكاية من الحكاية نفسها، وأنك والله حكاية من لحم ودم تُروى للأجيال على مر الدهور تسليةً وعزاءً واقتداءً.

- يا بُني لا تجد حرجاً في صدرك من أي شيءٍ، قل لي ما قالوا، وأنا بإذن الله أجيبك. وتذكر أنه ما من أحدٍ إلا وله كاره أو حاسد، وأن الناس طالما أساؤوا الأدب مع الله، فقد قالوا يد الله مغلولة، ونسبوا له الولد والزوجة تعالى الله عن هذا علواً كبيراً. وقالوا عن النبيِّ ﷺ

ساحر، وشاعر، ومجنون، وكذاب، فإذا كان الله جلَّ في علاه قد قيل فيه ما قيل، وسيد الخلق قد قيل فيه ما قيل، فهل يسلم أبو بكر؟

ثم إنَّ موسى عليه السلام قد سأل الله يوماً أن لا يقول فيه الناس ما ليس فيه. فقال له الله تعالى: يا موسى هذا شيء لم أجعله لنفسي فكيف أجعله لك؟!

- أرحتني بعمق فهمك، وسعة صدرك، وبليغ كلماتك يا خليفة رسول الله.
- بارك الله بك يا بُني، هاتِ ما عندك لا عليك، فإن لكل ما تسأل عنه جواباً إن شاء الله.
- قال أراذل الناس: أن النبي ﷺ قال: أنفِذوا جيش أسامة، لعنَ اللهُ المتخلفَ عن جيش أسامة، وأنك وعمر وعثمان لم تكونوا في الجيش، فما ردك؟

- أولاً: لم يقل النبي ﷺ هذا، وإنما هذا افتراء وكذب على النبي ﷺ.

ثانياً: بعثَ النبيُّ ﷺ جيش أسامة في مرضه الذي مات فيه، وكان الجيش في معسكره، ولم يتحرك حتى قُبض النبي ﷺ، وقد عهدَ إليَّ في فترة مرضه أن أصلي بالناس، فكيف يأمرني أن أصلي بالناس في مرضه ثم أكون في الجيش؟ ثم إذا كان لعن من تخلَّف عن جيش أسامة فكيف كان يأتي في

مرضه ويصلي معنا في المسجد نحن الذين بقينا في المدينة ولم نكن في معسكر الجيش؟ كيف يلعننا ثم يأتي ويصلي معنا؟! الأمر بحاجة إلى بعض المنطق والعقل، ولكن من أعماه الحقد فلا عقل ولا منطق لديه!

ثالثاً: أنا وعثمان لم نكن ضمن جيش أسامة أساساً، فلم يبعثنا النبيُّ ﷺ من الأساس. وإنما استبقانا في المدينة، من كان في جيش أسامة هو عمر بن الخطاب فقط وهو لم يتخلف، ولم يرفض الذهاب، وإنما كان في المعسكر، وعندما مات النبي ﷺ استأذنتُ أسامة بن زيد أن يبقى عمر عندي، لأن حاجة المسلمين إلى رأي عمر في هذه الأزمة أشد من حاجتهم إليه مقاتلاً عادياً في جيش كثير العدد! ولولا أني استبقيته لحاجتي له، وزيراً أميناً وناصحاً صادقاً لكان ذهبَ، ثم إنَّ عمر ما تخلف يوماً عن غزوة، وكان في بدر وأحد وخيبر وتبوك وفتح مكة وكلها غزوات أخطر وأدهى من جيش أسامة.

– رد مفحم يا خليفة رسول الله، فسبحان من أتاك حكماً وعلماً.

– سبحانه وتعالى، فاذا قال هؤلاء الأراذل بعد؟

– قالوا: منعَ أبو بكر فاطمة إرثها في خيبر وفدك، فقالت له: يا ابن أبي قحافة أترثُ أباكَ ولا أرثُ أبي؟ والتجأ إلى رواية انفردَ بها، وهي أن النبيَّ ﷺ قال:» نحن معاشر الأنبياء

لا نُـورثُ مـا تركناه صدقـة». والقـرآن الكريم يخالـف ذلك، لأن الله تعالـى قـال: ﴿يُوصِيكُـمُ اللَّهُ فِـي أَوْلَادِكُـمْ لِلذَّكَرِ مِثْـلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْـنِ﴾. ولـم يجعـل ذلـك خاصـاً بالأمـة دونـه. كمـا أن الله تعالـى يقـول:» ﴿وَوَرِثَ سُـلَيْمَانُ دَاوُود﴾. فكيف يرثُ سـليمان عليـه السـلام أبـاه داود عليه السـلام ولا تـرثُ فاطمـة أباها؟

- أولاً: لـم تقُـلْ لـي فاطمـة: أترِثُ أبـاك ولا أرثُ أبـي. وإنما القصـة كلهـا أنهـا جاءتني بعـد وفاة النبـي ﷺ تطلـب ميراثها مما تركـه أبوها.

فقلـتُ لها: يـا فاطمة إن أباك قال على مسـامعي: نحن معاشـر الأنبيـاء لا نُورث، مـا تركناه صدقة.

فغضبـتْ فاطمـة، ولم تـرضَ بحكمي هـذا، فقلتُ لها: لسـتُ تـاركاً شـيئاً كان النبـي ﷺ يعمـلُ بـه إلا وعملتُ به، فإني أخشـى إن تركـتُ شـيئاً من أمـره أن أزيغ.

ثم لنفترض جدلاً أنها قالت لي: أترثُ أباك ولا أرثُ أبي.

فـإنَّ هـذا ممـا لا يصـحُّ فيـه القيـاس، فأبـي واحـد مـن الناس يـرثُ ويُـورث بنـص الآية. أمـا أبوها فرسـول الله ﷺ فـلا يورثُ بنـص كلامـه هو.

ثـم إني لـم آخذ مـا تركه النبـيُّ ﷺ لنفسـي، بل إنمـا طبقتُ ما قـال بالحرف، أن يكون صدقـة، فجعلته في بيت مال المسـلمين. ولـو كان حقهـا لأعطيتها هـو، فما كنتُ لأنزع حقـوق عامة الناس حتـى أنزع حـق ابنة النبي ﷺ وهـي أكرم عندي مـن غيرها.

أما قول الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾. فهذا خاص بالأمة دون النبي ﷺ، بنص قوله، ومعلوم أن قول النبي ﷺ شارح للقرآن، ومقيد له، فالقرآن يقول: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ والنبي ﷺ يقول: أُحلتْ لكم ميتتان ودمان، الكبد والطحال، والسمك والجراد».

كان حكم أكل الميتة والدم حرام مطلقاً، وبنص الآية كل دم وميتة حرام، فجاء قوله ﷺ ليقيِّد الآية بإباحه الكبد والطحال من الدم، والسمك والجراد من الميتة.

كذلك لا يوجد في القرآن أن الذهب حرام على الرجال، وإنما حُرِّم بحديث النبي ﷺ. تماماً كما حُرِّم ميراثه بقوله!

أما قولهم: كيف لا يُورث الأنبياء والله يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ فهذا ميراث العلم والنبوة لا ميراث الدرهم والدينار، بدليل أنه كان لداود عليه السلام أولاد غير سليمان فكيف يرثه وحده لو كان المقصود بها وراثة المال؟!

ثم إن داود عليه السلام كان فقيراً، وقد قال النبي ﷺ: «ما أكلَ أحدٌ طعاماً خيراً من أن يأكل من كسب يده، وإن نبيَّ الله داود كان يأكل من كسب يده».

بينما كان سليمان عليه السلام ملكاً نبياً، حيزت له الدنيا كلها !

وأزيـدك مـن الشـعر بيتـاً، أنـا لـم أنفـرد بروايـة أن الأنبيـاء لا يُورثـون، بـل قد قـال النبيُّ ﷺ في موضـوع آخر قـولاً صريحاً أن الأنبيـاء لـم يُورِّثوا الدنيـا بعد موتهم، فقـد قـال: «إن العلماء ورثة الأنبيـاء، وإن الأنبيـاء لـم يُورِّثـوا دينـاراً ولا درهماً، وإنمـا ورثوا العلـم، فمـن أخـذ به أخـذ بخـطٍ وافر»!

إذا تفسـير أن سـليمان قـد ورث مـن داود مالاً، يتعـارض مع هذا القـول، فكيـف يجيء القـرآن بميراث الأنبيـاء في الدنيـا والمال، ثم يقـول النبـي ﷺ أنهـم لم يُورثـوا دينـاراً ولا درهماً. أهـؤلاء الأراذل أعلـم بمعانـي القـرآن من النبـي ﷺ؟ أم هو الحقـد والخبث؟

– هو الحقد والخبث والجهل يا خليفة رسول الله.
– فماذا قال هؤلاء الأفاكون أيضاً؟
– قالـوا: إن أبـا بكر عنـد احتضاره قـال: ليتَ أمي لـم تلدني، يـا ليتنـي كنـتُ تبنـة فـي لبنـة. والنبـي ﷺ قـال: مـا مـن محتضـر إلا ويـرى مقعـده مـن الجنـة أو النـار. فهـو نـدم لأنـه رأى مقعـده مـن النـار!
– كذبـوا واللـه، فلم أقل هـذا عند احتضـاري، وإن كل القصة أن عائشـة ابنتـي لما رأتني في سـكرات المـوت، قالت:

لعمـركَ مـا يُغنـي الثـراء عـن الفتـى
إذا حشـرجتْ يومـاً وضـاق بهـا الصـدرُ

فقلـتُ لهـا: ليـس كذلـك، وإنمـا قولـي ﴿وَجَـاءَتْ سَـكْرَةُ الْمَـوْتِ بِالْحَـقِّ ذَٰلِـكَ مَـا كُنـتَ مِنْـهُ تَحِيـدُ﴾.

وأما قولي: ليتَ أمي لم تلدني. فقلتها وأنا في كامل قوتي وصحتي، وهذا قول الصالحين من أتباع الأنبياء على مرِّ التاريخ خوفاً من أهوال يوم القيامة، وهذا من الأدب مع الله، وخوف الإنسان على نفسه أن لا تطاله رحمة الله، فقد قال النبي ﷺ: «لن يُدخِلَ أحداً عمله الجنة. فقلنا: ولا أنتَ يا رسول الله؟ فقال: لا، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة»!

وكان النبي ﷺ كثير الاستغفار، فليتّهموه إذًا أنّه كان كثير الذنوب!

سبحان الله كيف لهؤلاء كيف لا يفهمون معنى الأدب مع الله!

- أحسنتَ قولاً وإجابة يا خليفة رسول الله.
- فماذا قال هؤلاء الأراذل بعد؟
- قالوا: لم يولِّ النبي ﷺ أبا بكر أي عملٍ في حياته فكيف يوليه الخلافة؟
- سبحان الله فهذا جمع بين الجهل والكذب، فإنَّ النبي ﷺ ولاّني على الحج في العام التاسع للهجرة الشريفة بعد عودته من غزوة تبوك. ثم حجَّ هو بالناس في العام الذي بعده فيما عُرف بحجة الوداع.

ثم إنَّ عدم ولايتي إن صحّتْ فلا تدل على نقصي، بل تدل على حاجته لي عنده، فقد كنتُ وزيره، وهذا دأبُ الحكام الفقهاء، أنهم يُبقون عندهم من يحتاجون لرأيه لأنه لا يسد

أحـد مكانهـم، أمـا الوظائـف فيقـوم بهـا الكثيـرون، وقـد جـاء عمـر بـن الخطاب بعـدي ولـم يكـن يولي أهـل الشـورى كعثمان وطلحـة والزبيـر وعلـي، وهـؤلاء أصلـح وأفضـل ممـن ولاْهـم المـدن والبـلاد، ولكـن حاجـة الأميـر إلـى بعضهـم قُربَـه أحوج مـن حاجتـه لهـم بعيـداً عنه.

- صدقتَ يا خليفة رسول الله.
- فماذا قال هؤلاء الأفاكون بعد؟
- قالوا: إنَّ أبا بكرٍ قال: إنَّ لي شـيطاناً يعتريني، فإن اسـتقمتُ فأعينونـي، وإن زغـتُ فقوموني، ومن شـأن الإمـام تكميل الرعيـة، فكيف يطلب منهـم الكمال؟!
- هـذا قـول مجتـزأ! والحـقُّ أنـي قلـتُ: إنَّ لـي شـيطاناً يعترينـي عنـد الغضـب، فـإذا اعترانـي فاجتنبونـي لا أؤثـر فـي أبشـاركم.

وقلـتُ أيضاً: أطيعوني ما أطعتُ الله ورسـوله، فـإن عصيتهما فـلا طاعة لـي عليكم. وهـذا واللهِ إنمـا يجب أن يكـون في كتاب مدحي لا فـي كتاب ذمي!

فأمـا قولي عـن الشـيطان يعتريني، فالشـيطان يعتري الإنسـان عنـد الغضـب، فخشـيتُ إن غضبـتُ أن أظلـم أحـداً، أو أقـول له كلامـاً جارحـاً، فأمرتهـم أن يجتنبونـي وأنا في فـورة غضبي، لأن

الغضب يحمل الإنسان على ما يكره، وقد قال النبي ﷺ: لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان.

وهذا ما أردته بالضبط، أن لا أحكم وأنا غضبان، وهذا من طاعتي للنبي ﷺ، ومن حرصي على المسلمين.

ثم إنَّ الغضبَ يعتري كل خلق الله، وقد قال النبي ﷺ: «اللهمَّ إني آخذُ عندكَ عهداً لن تُخلفنيه، فإنما أنا بشر، فأي المؤمنين آذيته، شتمته، لعنته، جلدته، فاجعلها له صلاةً وزكاةً، وقربةً تُقربه بها إليك يوم القيامة».

فها هو رسول الله قد يعتريه شيء من الغضب.

وقال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

وهذا كليم الله قد أخذه الغضب، فإذا كان الغضب لا يقدح في المرء أن يكون نبياً، فمن باب أولى أن لا يقدح في المرء أن يكون خليفةً، لأن مقام النبوة أعلى من مقام الخلافة.

أما عن اعتراض الشيطان للإنسان ففي القرآن منه كثير، فقد قال موسى عليه السلام عندما قتل القبطي ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

وقال فتى موسى عليه السلام لما نسي إخباره بأمر الحوت ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾.

وقال الله تعالى عن آدم عليه السلام وحواء ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

فإذا كان اعتراض الشيطان للإنسان لا يقدح في نبوته، فمن باب أولى أن لا يقدح في خلافته، لأن مقام النبوة أعلى وأجلُّ.

وأما قولي: فإن استقمتُ فأعينوني، وإن زغتُ فقوموني، فهذا من عدلي وتقواي، وواجب كل حاكم أن يقتدي بي في ذلك، وواجب الرعية أن تعامل حكامها بهذا، فإن استقام الحاكم أعانوه، وإن زاغ بينوا له الصواب ودلوه عليه.

وأما قولهم: من شأن الإمام تكميل الرعية، فكيف يطلب منهم التكميل؟

فهذا أمره أيسر مما قبله، والرد على ذلك من وجوه:

الأول: معناه أنه يجب على الإمام والرعية أن يتعاونوا على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان، والدين قد اكتمل بالنبي ﷺ، فلم يبقَ عند الحاكم دين ينفرد به، ولكن لا بُدَّ من الاجتهاد في الجزئيات، وفي مستجدات الأمور، فإن كان الحق واضحاً أمر به الحاكم، وإن كان واضحاً له خفياً عليهم

بيَّنه لهم، وإن كان الأمر مشتبهاً تشاور فيه الحكام مع الرعية ليصلوا إلى الحق، وإن تبيَّن لأحد من الرعية رأي الحق، أدلى به إلى الحاكم. وبهذا المعنى تكمل الرعية حاكمها.

الثاني: كل من المخلوقين قد استُكمِل بالآخر، كالمتناظرين في العلم، والمتشاورين في الرأي، والمتعاونين المتشاركين في مصلحة الدين والدنيا، فالناس يكملُ بعضهم بعضاً.

الثالث: ما زال المتعلمون يُنبهون معلمهم على أشياء، ويستفيدها المعلم منهم، مع أن عامة ما عند المتعلم من الأصول قد تلقاها من معلمه، ولكن الأمر كما قال ربنا في محكم التنزيل ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

الرابع: موسى عليه السلام قد استفاد من الخضر في ثلاث مسائل ولم يُنقص هذا من نبوته. وقال الهدهد لسليمان عليه السلام﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.
ولم ينقص هذا من نبوته.

والنبي ﷺ كان يستشير أصحابه، ويرجع إليهم بالرأي، وربما تركَ رأياً كان يراه لرأي أحدٍ منهم تماماً كما حدث في غزوة بدر يوم قال الحباب بن المنذر للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيتَ هذا المنزل أهو منزل أنزلك الله تعالى إياه فليس لنا أن نتعداه، أم هو الحرب والرأي والمكيدة؟

فقال له النبي ﷺ: بل هو الحرب والرأي والمكيدة.

فقال الحباب: ليس هذا بمنزل قتال!

فرجع النبي ﷺ إلى رأي الحباب. ولم يقدح ذلك في نبوته شيئاً !

- صدقتَ يا خليفة رسول الله، رد مفحم ومُلجم، فسبحان من جعل بعض البيان سحراً وأعطاك منه ما تبلغ به حجتك، وتذل خصمك.
- بارك الله بك يا بُني، فهل انتهينا من هؤلاء الأراذل أم أنهم قد افتروا شيئاً غيره؟
- للأسف لقد افتروا بعد!
- فماذا قالوا؟
- قالوا: يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾. وهذه الآية تدل على ضعف إيمان أبي بكر وقلة صبره، وعدم يقينه بالله، وعدم رضاه بمساواته للنبي ﷺ، أي في أن يموتا معاً بقضاء الله وقدره.
- شُلَّتْ أيمانهم وأُخرستْ ألسنتهم، فقد افتروا عليَّ وقالوا بهتاناً عظيماً، والرد على كذبهم سهل بسيط من عدة وجوه:

الأول: ليس في الآية ما يدل على هذا، على العكس هذه أحبُّ آياتِ المصحف إلى قلبي، قرآن يُتلى إلى يوم القيامة،

يشـهدُ أنـي كنتُ صاحـب النبـي ﷺ ورفيقه، وأنـه كان يربتُ على قلبـي، ويطمئنـي ويقـول: «لا تحـزن إن اللـه معنـا». وواللـهِ هـي أجمـل ما قـال صديـق لصديقه فـي تاريخ البشـرية.

الثانـي: هـذه الآيـة دليل علـى حزني علـى النبي ﷺ لئـلا يُقتل فيذهـب الإسـلام، وكنـتُ أتمنـى لـو فديتـه بنفسـي، لهـذا كنـتُ قبـل أن نبلـغ الغـار أمشـي أمامه تارةً ووراسـه تـارةً، فسـألني عن ذلـك، فقلـتُ: يا رسـول الله، أذكـرُ الرَّصدَ فأكون أمامـك، وأذكرُ الطَّلبَ فأكـون وراءك.

أمـا كذبهـم فـي قولهـم بأني لـم أرضَ أن نمـوت معـاً، بل إني لـم أرضَ أن يُقتـل النبـيُّ ﷺ وأعيـشُ أنـا، وإنمـا أفديـه بنفسـي وأهلـي ومالـي. وهـذا واجـب كل مسـلم، ومـن بـاب أولـى فهو واجبـي وأنـا صديقـه وخليله.

أمـا حزنـي فـكان علـى النبـي ﷺ، وهذا يُحسـب لـي لا عليَّ، فـإن لم أحـزن عليـه لاتهمـتُ إيماني!

الثالـث: قولهـم إنـه يـدل علـى قلـة صبـري فباطـل، بـل ولا يـدل علـى انعدام شـيءٍ مـن الصبـر المأمور بـه، فـإنَّ الصبر على المصائـب واجـب بنـص القـرآن الكريـم والسـنَّة المطهـرة، ومع هـذا فحـزن القلـب لا يُنافـي ذلك.

وقـد قـال النبـيُّ ﷺ: إنَّ اللهَ لا يُعـذِّبُ بدمع العيـن، ولا بحزن القلـب، ولكـن يُعـذِّبُ بهذا وأشـار إلى لسـانه أو يرحم.

الرابـع: أمـا قولهـم بهتانـاً إنه يدل على عـدم يقينـي بالله. فهذا كـذب وافتـراء، فـإنَّ الأنبيـاء قـد حزنـوا، ولـم يكـن ذلـك دليـلاً علـى عـدم يقينهـم باللـه، كمـا حـزن يعقـوب عليـه السـلام على فـراق يوسـف عليـه السـلام، وكمـا حـزن النبـي ﷺ عنـد مـوت ابنـه إبراهيم، ودمعـتْ عيناه، وقـال: إن العين لتدمـع، وإن القلب ليحـزن، ولا نقـول إلا مـا يُرضـي ربنـا، ووالله يـا إبراهيـم إنا بك لمحزونون!

الخامـس: قولهـم كذبـاً بـأن هـذا يـدل علـى ضعفـي وعـدم رضـايَ بقضـاء اللـه وقـدره، فوالله إنـي لـم أسـخط يومـاً علـى قـدر اللـه، لقيـتُ في سـبيل اللـه من كفـار قريـش ما يهـد الجبال فثبـتُّ. ثـم أنـا مـن طلبـتُ مـن النبـي ﷺ أن يصحبني معـه، وقد تكـرَّم علـيَّ أن قَبـل، وكنتُ أعلـمُ بمخاطـر الطريـق، وصعوبة ما أنـا قـادم عليـه، فليـس الأمر فقـدان ابـن أو مالٍ نـزل علـيَّ فجأة، وإنمـا مشـيتُ إلى قـدر اللـه مختـاراً، راضيـاً به!

- كالعادة يا خليفة رسول الله، ردٌ مُلجم، يثلج الصدر.
- بـارك اللـه بـك يـا بُنـي، فهـل عنـد هـؤلاء النكرات شـيء بعد ؟
- أجل يا خليفة رسول الله.
- فهاتِ إذاً.
- قالـوا: إنَّ تقديـم أبي بكـر، إماماً في الصـلاة كان خطأً، لأن بـلالاً لمـا أذّنَ بالصـلاة، أمـرتْ عائشـة أن يُقـدَّم أبـا بكـر،

فلما أفاق النبي ﷺ وسمع التكبير، قال: من يُصلي بالناس؟ فقالوا: أبو بكر. فقال: أخرجوني. فخرجَ بين عليٍّ والعباس فنحَّاه عن القبلة، وعزله عن الصلاة، وتولى الصلاة.

- سبحان الله ما أكذبهم وأجهلهم!

فأما كذبهم: فقد قالوا بخلاف ما حدث، فلا علاقة لعائشة بالأمر، على العكس تماماً هي لم ترد أن أصلي أساساً بالناس، وحين قال لها النبي ﷺ: مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس.

قالت له: إن أبا بكر رجل أسيف/ رقيق إن يقُمْ مقامك يبكي، فلا يقدر على القراءة.

فقال: مروا أبا بكر فليُصلِّ بالناس.

واستعانت عائشة بحفصة، لتقول للنبي ﷺ مثل قولها، فأبى وقال: إنكنَّ صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس.

وأما جهلهم: فإنهم يحسبون أنها كانت صلاةً واحدة. والصحيح أني صليتُ بالناس طوال مرض النبي ﷺ، وبقيتُ على هذا حتى قُبِضَ بأبي هو وأمي.

- أحسنتَ رداً كالعادة يا خليفة رسول الله.
- بوركتَ يا بُني، فهل عند هؤلاء المفترين شيء بعد؟
- للأسف ما زال عندهم شيء بعد.
- فهاته إذاً.

- قالـوا: لـو أنفـقَ أبو بكر في سـبيل اللـه لوجبَ أن ينـزلَ فيه قـرآن كمـا نزل فـي علي بـن أبي طالب في سـورة الإنسـان.

- عندما يجتمع الجهل مع الكذب!

فأمـا الجهـل: فقولهـم عـن نـزول سـورة الإنسـان فـي أخـي وصاحبـي علـي بـن أبـي طالـب قـول مـن لا علـم لـه!

فسـورة الإنسـان مكيـة نزلـتْ قبـل الهجـرة، وقبـل أن يتـزوج علـيٌّ بفاطمـة، ولـم ينزل قط قـرآن في إنفـاق علي بـن أبي طالب علـى فضلـه وشـجاعته وجهـاده، لأنـه كان فقيـراً لا مـال لديـه، ولمـا زوَّجـه النبـي ﷺ بفاطمة لـم يكن معـه مهر إلا درعـه، فمن أيـنَ يُنفـقُ مـن ليس لديـه مهر ليتـزوج؟!

وأمـا الكـذب: وهو أشـد الكذب لأنـه تكذيب للنبـي ﷺ وهو القائـل فـي الخـلاف الـذي حدث بينـي وبين عمـر مـرة: «إنَّ الله بعثنـي إليكـم ، فقلتـم كذبـتَ، وقـال أبو بكـر: صدقَ. وواسـاني بمالـه ونفسـه، فهل أنتـم تاركو لـي صاحبي».

فكيـف يقـول النبي ﷺ إنـي واسـيته بمالـي ثـم ينكـر هـؤلاء الشـرذمة ذلـك؟

ثـم أيـن إعتاقـي لبـلال بـن ربـاح والمسـتضعفين مـن عبيـد المسـلمين فـي مكـة؟ وأين جيش العسـرة يـوم جئت بـكل مالي، فقـال لـي النبـي ﷺ: مـا تركـتَ لأهلـكَ يا أبـا بكر؟

فقلتُ: تركتُ لهم الله ورسوله!

- أحسنتَ رداً يا خليفة رسول الله.
- بـاركَ اللـه بـك يـا بُنـي، فهـل عنـد هـؤلاء الكذابين شـيء بعد ؟
- أجل ما زال عندهم.
- فهاته إذاً!
- قالـوا: إن أبـا بكـر كان معلمـاً للصبيان فـي الجاهلية، وكان خياطـاً فـي الإسـلام فلمـا ولـيَ الخلافـة منعه المسـلمون مـن ذلك؟

- سـبحان اللـه مـن كذبهـم الذي لـو صحَّ مـا كان إسـاءة لي! لقـد كنتُ تاجـراً في الجاهليـة، وتاجراً في الإسـلام. ثم لنفترض أنـي كنـتُ معلمـاً للصبيان في الجاهليـة فأين العيبُ فـي أن يكون المـرءُ معلمـاً. ولنفتـرض أنـي كنـتُ خياطـاً فـي الإسـلام فأيـن العيـبُ فـي هـذا أيضـاً، ولكنـه جهلهـم حيـن اعتقـدوا أن المهنة تقـدح بالمـرء، فقـد قـال النبـي ﷺ: « كان زكريـا عليـه السـلام نجـاراً»! وهـذا لم يقـدح في نبوتـه، فلو كنـتُ معلمـاً للصبيان لم يقـدح ذلـكَ فـيَّ أيضاً!

كذلـك أخبرنـا النبـي ﷺ أن داود عليـه السـلام كان يـأكل من كسـب يديـه، وكان يصنع الـدروع ويبيعهـا. وقال اللـه تعالى عنه فـي القـرآن: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَـةَ لَبُوسٍ لَّكُـمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِـكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَـاكِرُونَ﴾

ولم يقدح هذا في نبوته، فأين العيبُ لو كنتُ خياطاً.

والحق أني كنتُ تاجراً، ويوم وليتُ الخلافة أردتُ أن أبقى على عملي لأطعم عيالي، فكان الرأي أن أتفرغ للناس ويعطونني راتباً من بيت المال، فأين العيب في هذا؟

– لا عيب، ولكن الحاقد يرى الأمور بسواد قلبه.

– صدقتَ يا بُني، فهل عند هؤلاء الأراذل من شيء بعد

– لا يا خليفة رسول الله، هذا كل ما افتروه كذباً.

– لا بأس يا بُني، وعند اللهِ تجتمعُ الخصوم!

- وصلنا الآن إلى مشارف الوداع يا خليفة رسول الله، وإنَّ لقاءك لعذب، وكلامك لحلو، ولكن على ما يبدو أن لكل شيء نهاية في هذه الحياة.
- صدقتَ يا بُني، هذه هي سُنَّة اللهِ تعالى في الكون، ما عافية إلا ويعقبها مرض، وما لقاء إلا ويعقبه فراق، وما حياة إلا ويعقبها موت.

- فعلى سيرة الموت يا خليفة رسول الله، فحدثني عن مرضك الذي سبق ارتحالك إلى جوار ربك، فقد سمعتُ عنه أخباراً كثيرة متضاربة.
- وما سمعتَ يا بُني؟
- هي ثلاثة أخبار:

الأول: هي أنكَ كنتَ وطبيبَ العربِ الشهير الحارث بن كلدة تأكلان الحريرة وهي الدقيق الذي يُطبخ باللبن أو الدسم. فبينما أنتما تأكلان، قال لك الحارث بن كلدة: اِرفعْ يدكَ يا خليفة رسول الله، إنَّ فيها سُمَّ سنة، وأنا وأنت نموتُ في يوم واحد عند انقضاء السَّنة.

الثانـي: أن بدايـة مرضـكَ أنـكَ اغتسـلتَ يـوم الإثنيـن فـي السـابع من جُمـادى الآخـرة، وكان يوماً بـارداً، فأُصبـتَ بالحمى لمـدة خمسـة عشـر يومـاً، فلـم تكـن تخـرج إلـى الصـلاة لشـدة مرضـك، وأمّـرتَ عمـر بـن الخطـاب أن يصلـي بالنـاس، فصلى فيهـم إلـى أن انتقلـت إلـى جـوارِ ربٍّ راضٍ غيـر غضبـان.

الثالـث: أن سـببَ موتـكَ هو الحـزن والكمدُ علـى النبي ﷺ، وأنَّ هـذا أورثـكَ مـرض السِّـل، فمرضـتَ بعـد خـروج خالد من العـراق، وأنـتَ يومئـذٍ فـي دارك التـي أقطعـك إياهـا النبـي ﷺ قـرب دار عثمـان بـن عفان، فـكان أكرم النـاس لكَ فـي مرضك، وأكرمهـم لـكَ حتـى فاضت الـروح إلـى بارئها.

- فأمـا خبـر الحارث بـن كلدة فلا يصـح، ثـم إن الحارث بن كلـدة عمَّـرَ وعاش حتـى توفي في خلافـة معاوية.

وأمـا الحزن علـى النبي ﷺ ومرض السِّـل، فلم يبـقَ مؤمن إلا حـزن لمـوت النبـي ﷺ، ولكن مـا علاقة الحـزن بمرض السـل، الـذي لـم أُصب به أساسـاً.

ولكـن الصحيـح هـو أنـي اغتسـلتُ فـي يـوم بـاردٍ، فأصابني ذلـك بالحمـى وبقيـتُ أعاني منها خمسـة عشـر يوماً، تشـتدُّ عليَّ يومـاً بعـد يـوم حتـى غـادرتُ الدنيا إثـر هـذا المرض.

وأمـا عثمـان ففعـلاً أنـه كان ألزمَ النـاس لي فـي مرضي بحكم أنـه كان جاري.

- فمـاذا عـن اسـتخلافك عمـر بن الخطـاب يا خليفة رسـول اللـه، أعنـي كيف تـمَّ الأمر؟
- لمـا ثقُـل عليَّ المـرض، وأدركـتُ أن الموت قـد اقترب لا محالـة، جمعـتُ النـاسَ وقلـتُ لهم: إنـه قد نزل بـي ما قد تـرون، ولا أظننـي إلا ميتاً لما بـي، وقد أطلق اللـه أيمانكم مـن بيعتـي، وحـلَّ عنكـم عقدتـي، وردَّ إليكـم أمركـم، فأمِّـرُوا عليكـم من أحببتـم، فإنكـم إن أمَّرتم في حيـاةٍ مني كان أجـدر ألا تختلفـوا بعدي.
- واللـهِ إنـه لنعـمَ الـرأيَ، لقـد تركـتَ لهـم الأمر ليختـاروا، فمـاذا حـدثَ بعـد ذلك؟
- ذهبـوا عنـي، ونظـروا فـي أمرهـم فلـم يسـتقم لهـم رأي، فرجعـوا إلـيَّ فقالـوا: رأينـا يـا خليفـة رسـول اللـه رأيـكَ، فاقـضِ أنـتَ.

فقلتُ: أمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده.

- فما فعلتَ؟
- دعـوتُ عبـد الرحمـن بـن عـوف، وقلـتُ لـه: أخبرني عن عمـر بـن الخطاب.

فقال: ما تسألني عن أمرٍ من أمور عمر إلا وأنتَ أعلم به مني.

فقلتُ له: وإن يكن، فإني أريدُ أن أسمعَ رأيكَ.

فقال: هو واللهِ أفضل من رأيكَ فيه.

ثـم دعـوت عثمـان بن عفـان وقلـتُ لـه: أخبرني عـن عمر بن الخطاب.

فقال: أنتَ أعلمُ به مني.

فقلتُ: ولكني أريدُ رأيكَ.

فقـال: علمـي بـه أن سـريرته خير مـن علانيتـه، وأنه ليـس فينا مثله .

فقلتُ له: يرحمُكَ الله، واللهِ لو تركته ما عدوتُكَ.

- وماذا حصل بعد ذلك؟
- بعـد ذلـك شـاورتُ سـعيد بـن زيـد، وأُسـيد بـن حُضيـر، وغيرهمـا مـن المهاجريـن والأنصـار، فقـال أسـيد بـن حُضيـر: اللهـم أعلمـه الخيـرة بعـدكَ، يرضـى للرضـى، ويسـخط للسـخط، والـذي يُسِـرُّ خيـر مـن الـذي يُعلِـنُ، ولـن يلـيَ هـذا الأمـر أحـدٌ أقـوى عليـه منـه.

- فهـل رضـي الجميـع عـن قـرارك باسـتخلاف عمـر بـن الخطـاب أم أن بعضهـم قـد عـارَضَ؟
- سـمعَ بعـض الصحابـة باسـتدعائي لعبـد الرحمـن بـن عـوف، وعثمـان، وغيرهم، فدخلـوا عليَّ، وقـال لي طلحة بـن عبيـد اللـه: مـا أنـتَ قائـلٌ لربـكَ غـداً إذا سـألكَ عـن اسـتخلاف عمـر علينـا، وقـد تـرى غلظتـه، وهـو إذا ولـيَ كان أفـظَّ وأغلـظ!
- فماذا أجبته يا خليفة رسول الله؟

- كنتُ نائماً من شدة مرضي، فقلتُ لمن حولي: أجلسوني. فلما جلستُ قلتُ: أباللهِ تخوفونني؟ خافَ من تزوَّدَ من أمركم بظلم. فإن سألني أقول: اللهمَّ إني قد استخلفتُ على أهلكَ خير أهلك! أبلِغْ عني ما قلتُ لكَ لمن وراءكَ!

- فلماذا لم يرضَ هو ومن معه بعمر؟
- كان عمر بن الخطاب شديداً حازماً، لما كان يراه من ليني، فكان يشُدُّ ليني بقوته فيستقيم أمرنا، وقد خشوا إذا صار الخليفة أن يشتدَّ فلا يلين، وكنتُ أعرف أن عمر حازم من غير قسوة، رقيق من غير ضعف، وكانت فراستي فيه في مكانها، فواللهِ كان من خير خلفاء المسلمين على مرِّ التاريخ، أعزَّ الله به الإسلام وأهله، وأذلَّ به الشرك وأهله.
- هو واللهِ كما قلتَ فيه، خير خلفٍ لخير سلفٍ، وقد كان ختام خلافتك مسكاً إذ وليته أمر المسلمين بعدك.
- باركَ الله بكَ يا بُني.
- وماذا حدث بعد ذلك يا خليفة رسول الله؟
- دعوتُ عثمان بن عفان إليَّ، وقلتُ له: اُكتبْ بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما دعا به أبو بكر بن أبي قحافة، في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً إليها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، وإني استخلفتُ عليكم...

وقبـل أن أذكـر لـه اسـم عمر بـن الخطـاب أخذتني غشـية من شـدة المـرض، فكتـبَ عنـي إنـي اسـتخلفتُ عليكم بعـدي عمر بـن الخطاب.

فلما أفقتُ قلتُ اقرأْ عليَّ ما كتبتَ.

فقرأ عليَّ اسم عمر بن الخطاب، فقلتُ: الله أكبر.

ثـم قلـتُ لـه: أراك خِفـتَ أن تذهـبَ نفسـي فـي غشـيتي تلكَ فيختلـف النـاس، فجزاك الله عن الإسـلام خيـراً، واللـهِ إنْ كنتَ لهـا أهلاً.

ثم أمرته أن يكتب تتمة الكتاب:

فاسـمعوا لـه وأطيعوا، وإني لم آلُ الله ورسـوله ودينه ونفسـي وإياكـم خيـراً، فـإنْ عـدلَ وذلك ظنـي به، وعلمـي فيـه، وإن بدَّلَ فلـكل امـرىءٍ مـا اكتسـبَ، والخيـرُ أردتُ ولا أعلـمُ الغيـب، «وَسَـيَعْلَمُ الَّذِيـنَ ظَلَمُـوا أَيَّ مُنقَلَـبٍ يَنقَلِبُـونَ». والسـلام عليكم ورحمـة اللـه وبركاته.

ثـم أمرتـه فختـمَ الكتـاب، وخـرجَ بـه مختومـاً، فقـال للناس: أتُبايعـون لمـن فـي هـذا الكتاب؟

فقالوا: نعم

وأقروا بذلك جميعاً، ورضوا به وبايعوه.

– وماذا فعلتَ بعد ذلكَ يا خليفة رسول الله؟

- رفعتُ يديَّ أدعو الله تعالى، فقلتُ: اللهمَّ إني لم أُردْ بذلك إلا إصلاحهم، وخِفتُ عليهم الفتنة، فعملتُ فيهم ما أنتَ أعلمُ به، واجتهدتُ لهم رأيي، فوليتُ عليهم خيرهم وأقواهم عليه. وقد حضرني من أمركَ ما حضرَ، فاخلفني فيهم، فهُم عبادك، ونواصيهم بيدكَ، وأَصلِحْ لهم أميرهم، واجعله من خلفائك الراشدين، وأَصلِحْ له رعيَّته.

- فهل أوصيتَ عمر بن الخطاب بشيءٍ يا خليفة رسول الله؟
- بالطبع يا بُني
- وبمَ أوصيته؟
- قلتُ له اُدنُ مني يا عمر، فلما دنا قلتُ: إني مستخلفك، وأوصيك بتقوى اللهِ يا عمر! إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملًا بالنهار لا يقبله بالليل، واعلم أنه لا تُقبل منك نافلة حتى تُؤدي الفريضة، وأنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق، وحُقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلًا! وإنما خفَّتْ موازين من خفَّتْ موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل، وحُقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفًا. إن الله جلّ ذِكره ذكرَ أهل الجنة بحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكرتهم فقل إني أخاف

ألا أكـون مـن هـؤلاء. وذكـر آيـة الرحمـة مـع آيـة العذاب ليكـون العبـد راغبًـا راهبًـا، لا يتمنى علـى الله غيـر الحق، ولا يلقـي بيـده إلـى التهلكـة، فـإن حفظـت وصيتـي فـلا يكونـن غائـب أحـب إليـك مـن المـوت، ولسـتَ بمعجزه!

- هـي واللـهِ وصيـة مـودع، وإن المـرء أصـدق ما يكـون إذا كان فـي إدبـار مـن الدنيا وإقبال مـن الآخرة، وقـد كنتَ في حياتـكَ صدّيقًـا، فكيـف لا تكـون وأنـتَ فـي آخـر عهدكَ مـن الدنيـا، ولكـن هل يتسـع صـدر خليفـة رسـول الله لي لأسـأله عـن بعضها.
- سل ما بدا لكَ يا بُني.

- لمـاذا بـدأتَ وصيتـكَ بقولـكَ: أوصيـك بتقـوى اللـه يـا عمـر؟
- لأنـي كنـتُ أعـرفُ أنّ السـلطان فتنة لصاحبهـا، لأنه يملك القـوة والمـال، والناس أمامهـا ضعفاء، وإنه لمـن النادر أن يملـك أحد القـوة والمال ولا يطغـى، فـأردتُ أن أُذكِّره أن اللـه مطلع عليـه، وناظر مـا يفعل في السـلطان الـذي صار إليـه، وفـي المال الذي صـار عنده، وفي النـاس الذين صار أمرهـم بيديه، وإن السـلطان أحوج النـاس أن يُخوّف بالله، لأن ليـس إلا اللـه فوقـه، فـإن العامة إنمـا تخاف السـلطان لأن القـوة بيـده، وتقرَبـه لأن المـال بيـده، أمـا السـلطان

فليس قوة في الأرض أكبر من قوته ليخشاها، وليس مال أكثر مما في يده ليطلبه، وقد أردتُ أن أُخوِّفه بالله، وأُذكِّره ليراقبه في أفعاله وأقواله، وسيره في الرعّية!

- وماذا قصدتَ بقولكَ: إن لله عملًا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملًا بالنهار لا يقبله بالليل؟
- أردتُ أن أقول له لا تقُمْ بدين النّاس وتنسَ أن تقوم بدينك! فإنما أنتَ عبد من عباد الله، فرضَ عليك أعمالاً وعبادات، فلا يشغلنكَ أمر الخلافة على أن تقوم بها، أردتُ أن أُذكِّره أن يحافظ على صلاته وصيامه، لأن الرعية على دين الراعي، إن زهد بالعبادة زهدوا معه، وإن جَدّ واجتهد فيها جدّوا واجتهدوا معه، وإن أقبل على الدنيا أقبلوا معه، وإن أقبل على الآخرة أقبلوا معه، فإن الحاكم للرعية كالرأس للجسد، حيثما توجه تبعه الجسد!

- وماذا قصدتَ بقولكَ: إنه لا تُقبل نافلة حتى تُؤدى الفريضة ؟
- أردتُ أن أقول له إنه لا شيء أحبّ إلى الله من أن يقوم العبد بما فرضه الله عليه، وأن العبد إذا فعل النوافل وترك الفرائض فقد أتعب نفسه في غير الذي خُلق له، وإن قام بهما معًا فقد جمع الخير كله، فصيام السّنة كلها

تطوعًا لا يُغني عن ترك صيام نهار واحد من رمضان بغير عذر، وصلاة الفجر في جماعة أفضل من قيام نصف الليل ثم النوم عنها، وإخراج ألف صدقة لا تغني عن ترك الزكاة وإن كان مجموع الصدقات أكثر ما يجب عليه من الزكاة، ذلك أن الصدقة نافلة والزكاة فريضة، والإكثار من النوافل لا يجبره ترك الفرائض! وأردتُ أن أُذكِّره أن الله افترض على الحاكم أمورًا إن لم يعمل بها لم ينفعه أن يعمل بسواها وإن كان سواها فيه خير كثير، فقد أُمر أن يقسم المال بالعدل بين الرعية، فلو أخذه لنفسه ثم أنفق منه كثيرًا بعد ذلك عليهم خاب وخسر، ذاك أنه لم يدفع إليهم حقوقهم، وكان في مظهر من يمنح هبة وهو في الحقيقة قد منع حقًا!

- وما قصدتَ بقولكَ، إن الله ذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغبًا راهبًا، لا يتمنى على الله غير الحقّ ولا يلقي بيده إلى التهلكة؟
- أردتُ أن أقول أن القرآن قرنَ بين الترغيب والترهيب، لأنه لو خاطبهم بالترهيب دون الترغيب لتقطعت قلوبهم خوفًا، وعبدوه عبادة العبد الذي لا يطيع سيده إلا خوفًا من السوط، ولو خاطبهم بالترغيب دون الترهيب لعبدوه عبادة العبد الذي لا يأبه بسيده لأنه أمن عقابه، أراد الله للناس أن يخشوه ويحبوه معًا، أن

يرهبوه ويطمعوا بما عنده، ومن رحمته سبحانه وهو يُثبتُ قدرته على العذاب يُذكّر بحلمه وعفوه، وهو يعد بالحلم والمغفرة والصفح يُذكّر بقدرته وجبروته، أراد لنا أن نعبده قارنين الحُبَّ بالخشية، فالله يُحبُّ أن يُحبَّ، ويُحبُّ أن يُخشى!

- يا لها من وصيَّةٍ جامعةٍ يا خليفة رسول الله.
- بارك الله بك يا بُني.
- وبكَ باركَ يا خليفة رسول الله، والآن أخبرني فهلْ أوصيتَ أهلكَ بشيءٍ؟
- بالطبع يا بُني وهل أوصي الناس، والخليفة من بعدي، وأنسى أهلي؟
- فبمَ أوصيتهم؟
- دعوتُ أولادي وقلتُ لهم: أما إننا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً، ولكننا قد أكلنا من جريشٍ/ خشن طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، فانظروا ما زاد في مالي منذ دخلتُ الإمارة، فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي وابرأوا منهنَّ.

- فماذا فعلوا؟
- عندما متُّ نظرَ أهلي فيما تركته، فإذا عبدٌ نوبي كان يخدمني، وبعير لي أركبه وأستعين به على قضاء أمري،

وقطيفـة كنـت ألبسـها. فبعثـوا بهـا إلى عمـر، فلمـا وصلته بكـى حتـى سـالت دموعـه علـى خـده وهـو يقـول: رحـم اللـه أبـا بكر لقـد أتعـبَ مـن بعده.

ثم قال لغلامه: ضعها في بيت المال.

فقـال لـه عبـد الرحمن بـن عوف: سـبحان اللـه، تسـلبُ عيال أبـي بكـر عبـداً وبعيـراً وثوباً ما تسـاوي خمسـةً مـن الدراهم!

فقال له عمر: فماذا ترى؟

فقال: تردُّهن على عياله.

فقـال لـه عمـر: والـذي بعـثَ محمـداً بالحـق لا يكـون هـذا فـي ولايتـي أبـدًا، ولم يكـن أبو بكـر ليخـرج منهنَّ عنـد الموت، وأردهـنَّ أنـا علـى عياله!

- فبأي شيءٍ كفنوكَ يا خليفة رسول الله؟

- قلتُ لعائشة: بمَ كفّنتم النبي ﷺ؟

فقالـتْ: فـي ثلاثـة أثـواب بيـضٍ كحوليـة يمانيـة ليـس فيهـا قميـص ولا عمامـة.

فقلـتُ لهـا: فـإذا مـتُّ أنـا فخـذوا ثوبـيَّ هذيـن فاغسـلوهما وكفنونـي بهمـا.

فقالتْ: أبتاه قد رزقَ اللهُ وأحسنَ، نُكفنكَ في جديد.

فقلـتُ: إن الحَـيَّ هـو أحـوج للجديـد يصـون بـه نفسـه مـن الميـت، وإنمـا يصيـرُ الميت إلـى الصديـد، وإلـى البِلـى.

- تستخسرُ ثوباً جديداً ليكون كفناً لك؟

- ما ينفعني الكفن الجديد، ولا يضرني القديم، فإني سألقى الله بأعمالي لا بكفني.

- فمن الذي غسَّلكَ يا خليفة رسول الله؟
- أوصيتُ أن تُغسلني زوجتي أسماء بنت عميس.
- وماذا عن مكان الدفن يا خليفة رسول الله؟
- أوصيتُ ابنتي عائشة أن أُدفن في حجرتها إلى جانب النبي ﷺ.
- هنيئاً لكَ، صديقان في الحياة وفي الممات.

- بارك الله بكَ يا بُني، فهل لكَ من حاجةٍ قبل أن أمضي؟
- الأمة كلها لها حاجة أن تبقى يا خليفة رسول الله.
- يكفيني ما لقيتُ من الدنيا، وإن هذه الأمة في عين الله ورعايته، لا ينقطع فيها الخير، فالسلام عليكَ ورحمة الله وبركاته، فإني ماضٍ.
- وعليكَ السلام ورحمة الله وبركاته

ومضى كما أتى...

تفوح منه رائحة الصحراء...

عربيٌّ خالص لا شِية فيه...

في ظهره انحناء قليل ليليق بمن حمل الإسلام على كتفيه طوال عمره.